بالسوء . وإن ذكر الرّحمة فى مقابل الغضب ، ممّا يزيد الرّحمة نصوعا وتضوعا . وإن ذكر الرّحمة وراء ذلك . فى حق هذا الفريق بالذّات الذى فرّ من الميدان ، أو أراد الفرار ، من الجائز أن يكون دليلا على ما قلنا ، بأن هذا الفريق الرّابع من فئات المنافقين أخف الفئات الأربع نفاقا ، وأقلها حظا منه . لذا صح فى حقه أن يلوّح له بباب رحمة الله تعالى المفتوح على مصراعيه دائماً وأبدا لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا واعتصم بالله تعالى وأخلص دينه له عزّ وجلّ . وقد قال عزّ من قائل فى سورة النساء[1] : **إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما** وتعتبر هذه الرّحمة ، رباطا آخر يشد الآية الكريمة إلى ما سبقها من آيات كريمات .

والخطاب هنا : « قل » على غرار الخطاب فى الآية الكريمة للمصطفى ﷺ : « ومن ذا استفهام . ركبت ذا مع من . وفيه معنى النفى . أى لا أحد يعصمكم من الله »[2] « فإن قلت : كيف جعلت الرّحمة قرينة السوء فى العصمة ، ولا عصمة إلاّ من السّوء . قلت : معناه أويصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة . فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله :

متقلدا سيفا ورمحا .

أو حمل الثّانى على الأوّل لما فى العصمة من معنى المنع[3] وهذا كلام عظيم . إنّ هؤلاء المنافقين ، بفرارهم من جبهة القتال يريدون أن ينتصروا على الموت والقتل . وإنّهم لواهمون . ويريدون أن ينتصروا على أى سوء يمكن أن يصل إليهم ، وهم غافلون . إنهم إن لم يعودوا إلى بارئهم ، مستغفرين تائبين عابدين عاملين للصّالحات . فإنّ مصيرهم حتما أن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقدر ، فى صورة من صور الأخذ الكثيرة ، الّتى أشار إلى واحدة منها على سبيل المثال قوله تعالى[4] : **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون .**

---

(١) الآية ١٤٥ ، ١٤٦

(٢) البحر المحيط ٢١٩/٧ .

(٣) الكشّاف ٥٣٣/٢ .

(٤) سورة الأنعام ٤٢ - ٤٥ .

فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشّيطان ما كانوا يعملون . فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ . وقوله تعالى[1] :﴿ وما أرسلنا فى قرية مِنْ نبى إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثمّ بدلنا مكان السيئة الحسنة حتّى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السّماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أوَ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾

وإذا كان ضمير المخاطبين هو الّذى يستعمل فى صدر الآية الكريمة ، فإنّ ضمير الغائبين هو الّذى يستعمل فى عجزها . وهذا التحوّل فى الضمير ، قادرٌ على حمل كلّ إنسان يتفق مع القوم فى موقفهم أو يقترب ، على أن يفهم أنه مقصود بهذه الجزئية الكريمة الّتى تجرى مجرى المثل . إنّ هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم ليس لهم من الله تعالى الولى الّذى يلى أمورهم بعد أن تخلى الله تعالى عنهم . وليس لهم النصير بعد أن خذلهم الله تعالى . قال عزّ من قائل :﴿ قُلْ من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾.

فإذاتحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا﴾ يتبين أنّها تتحدث عن طائفتين[2] من المنافقين ، إحداهما الطّائفة المثبطة للمسلمين عن الانضمام إلى جيش التوحيد بقيادة المصطفى ﷺ . وثانيتها الطّائفة التى تقول لإخوانها سكان المدينة المنوّرة من الأنصار : تعالوا إلينا ، وانضموا إلى جماعتنا ، نحن الّذين فررنا من المعركة وتبعاتها التى لا يرضى بها إلاّ المغامرون الّذين غرّهم دينهم ، وشاركونا ظلالنا

---

(١) سورة الأعراف ٩٤ - ٩٩ .

(٢) صرّح القرطبى بأنّ حديث الآية الكريمة هنا عن طائفتين اثنتين ص ٥٢٣٣ .

الوارفة ، تحت أشجار النخيل الباسقة ، وبين الزروع والكروم ، وطعامنا اللذيذ الهنيء، وشرابنا الحلو المرىء ، ولا يقوم أفراد هاتين الطّائفتين بأدنى أعمال عسكرية فى صالح المؤمنين ، إلاّ حينما يضطرون أيما اضطرار ويحرجون أيّما حرج . فكى يدفعوا عن أنفسهم التهمة التى يكادون ينفونها عن أنفسهم علنا رغ فعل للصراع الداخلى بين إحساسهم العميق بتحقق النفاق فيهم ، وبغضهم افتضاح أمرهم ، هم ينفون التهمة بالعمل المغشوش المحدود ، لأنه لا يراد به وجه الله تعالى ولأنهم مرغمون على القيام به . وإنّ هذا النوع من العمل ، مهما كان صغيرا حجمه ، وهينا خطره ، يصعب على أصحابه القيام به . وقد قال تعالى فى محكم كتابه عن هؤلاء القوم[1] : ﴿ **إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ .

وكأنّ آية سورة الأحزاب الكريمة تتحدّث عن هذا الفريق من المنافقين ، الذى نستطيع أن نقول عنه ، باعتباره يقاتل مع المؤمنين قليلا ، بدافع النزر اليسير من الإيمان الّذى كاد النفاق يقضى عليه بالكلية ، بأنه بطائفتيه ، يكاد يكون أقل الفئات الخمس نفاقا ، لأن الفئة السّابقة الرّابعة ، كانت أقل الفئات الأربع السّابقة نفاقا . وقد فرّت من الميدان بالكلية . أمّا هذه الفئة ، خاصة وقد أشار إليها التذييل بالقول : ﴿ ولا يأتون البأس إلاّ قليلا ﴾ فإنّها مذبذبة بين النفاق المتمكن منها والّتى يصدر منها بسببه الأقوال والأفعال الّتى أشارت إليها الآية الكريمة ، وبين القتال مع المؤمنين ، القليل زمنا ومفعولا ، بدافع البقية القليلة الباقية من الإيمان أو المروءة . إنّهم مذبذبون بين القول المتمثل فى ابتغائهم الفتنة وقولهم لإخوانهم تعالوا إلينا وانضموا إلى فريقنا ، فريق القاعدين مع الخوالف ، وبين الفعل الإيجابى المضطرين للقيام به والمتمثل فى هيئة القتال الهيّن القليل .

إنّ الحرف قد حينما يدخل على الفعل المضارع فى مثل هذه الحال ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ بمنزلة ربما فهى تفيد التكثير ومنه قوله الهذلىّ :

---

(١) سورة النساء ١٤٢ ، ١٤٣ .

قد أترك القرن مصفرا أنامله كأنّ أثوابه مجت بفرصاد[1]

وقوله :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى جرداء معروقة اللحيين سرحوب[2]

والمعنى أنّ الله تعالى يعلم كلّ ما يقول به المنافقون المعوقون ، بل ماتوسوس به أنفسهم فضلاً عما يفعلون . ومن الجائز أن نفهم أنّنا بصدد فئتين لافئة واحدة ، الفئة الأولى هى المعوقة والثّانية هى القائلة لإخوانهم هلمّ إلينا . وفى هذه الحال يكون نصّ الآية الكريمة بشأن الطّائفة الثّانية على مايقولون ، وذلك فى القول : ﴿ والقائلين لإخوانهم ﴾ يصحّ أن يفهم منه أنّ الطّائفة الأولى تسفل عن مستوى هذه الطّائفة الثّانية الّتى يميزها القول بأكثر من الفعل ، بينما جمعت الطّائفة الأولى بين القول والفعل معا ، لأنّ العوق ، بمعنى المنع ، والصرف يكون بالقول وبالفعل . وحينما تقرن هذه الطّائفة بين القول والفعل ، تكون بذلك قد ضربت المثل الأشد سوءاً بالقياس لمن اكتفى بالقول . يقال : « عاقه يعوقه عوقا ، وعوقه واعتاقه بمعنى واحد »[3] .

ويصح – كما قلنا – أن تكون الآية الكريمة إنّما تتكلم عن فئة واحدة جمعت بين النوعين من التعويق ، القولىّ والعملىّ . ومن مظاهر التعويق القولى المؤيد للتعويق العملىّ أنّهم يقولون لإخوانهم من الأنصار سكان المدينة المنوّرة : تعالوا إلينا وافعلوا فعلنا وانعموا بالمتع التى نستمتع بها ودعوا محمّداً ﷺ وأصحابه ، يواجهوان نهايتهم المنتظرة حتما . وعلى الرّغم من كل ذلك ، هم بدافع حبّ الذّات ، وحرصهم على نفى تهمة النفاق عن أنفسهم ، كى ينعموا فى مجتمع المدينة المنوّرة بما ينعم به المؤمنون ، هم يتظاهرون بالقتال مع المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ .

« وهلمّ » قالوا معناها تعال . وكان الفراء يقول : أصلها هل . ضم إليها أمّ . وتأويل ذلك أن يقال : هل لك فى كذا أمّ ، أى اقصد وتعال[4] وقد فصل أبو

---

(١) لسان العرب وتاج العروس « قدد » .

(٢) تاج العروس « قدد » الشعواء : المتفرقة الفاشية . ومعروقة اللحيين : قليلة لحم اللحيين بفتح اللام وهى العظمان اللذان ينبت عليهما الأسنان . والسرحوب بضمّ المهملتين الطويلة الظّهر السريعة . والبيت من قصيدة فى كتاب الخيل لأبى عبيدة ص ١٦٠ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٣٣ .

(٤) الصّاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ٢٧٩ .

حيان القول فى هلمّ معلقا على ما قال الزّمخشرى فى الكشاف من أنّ هلمّ صوت سمى به فعل متعد مثل احضر وقرّب[1] يقول أبو حيّان[2] : « والذى عليه النحويون أنّ هلمّ ليس صوتا ، وإنما هو مركّب مختلف فى أصل تركيبه . فقيل : هو مركّب من ها الّتى للتنبيه ، ولم . وهو مذهب البصريين . وقيل : من هل وأمّ . والكلام على ترجيح المختار منهما مذكور فى النّحو . وأمّا قوله : سُمى به فعل متعد ، ولذلك قدر : هلمّ إلينا ، أى قربوا أنفسكم إلينا . والنحويون على أنه متعد ولازم . فالمتعدى كقوله : قل هلمّ شهداءكم[3] أى أحضروا شهداءكم . واللازم كقوله : هلمّ إلينا وأقبلوا إلينا » « هلمّ إلينا .. وهى لغة أهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة . وأمّا تميم فيقولون : هلمّ يا رجل . وهلُموا يا رجال[4] « وهلمى للمرأة »[5] وقد فصل القرطبى رأى البصريين بالقول[6] : لأنّ الأصل : ها الّتى للتنبيه ضمت إليها لُمّ . ثمّ حذفت الألف استخفافا وبنيت على الفتح . ولم يجز فيها الكسر ولا الضمّ ، لأنّها لا تنصرف » .

ولننظر إلى اللفظة الّتى تستعملها الآية الكريمة إشارة للحرب العوان . إنّها لفظة البأس ولا يأتون البأس إلاّ قليلا وفى الوقت الّذى نتبين فيه من استعمال هذه اللفظة ، الثناء العاطر على المؤمنين المجاهدين المرابطين فى سبيل الله تعالى بقيادة سيد المجاهدين محمّد بن عبد الله ﷺ ، نحن نتبين التوبيخ الشديد والتقريع الأليم لأولئك المنافقين ، الّذين لا يلائمهم البأس ، الّذى لا يطيقه بعون الله تعالى ، إلاّ الرّجال الأشداء ، إنّما يلائمهم النعيم الّذى يتمنونه مقيما لأنهم من النّساء .

وتأمل الجملة المنفية ، « ولا يأتون » والمعروف أنّ جملة أتى حينما تستعمل فى القرآن الكريم يفهم من ذلك البعد المكانى أو الزمانى أو النفسى (المعنوى) وحينما تستعمل جملة (جاء) يفهم من ذلك القرب فى كلّ ذلك ، بحسب السّياق . ومع

---

(١) الكشّاف ٢/٥٣٤ .
(٢) البحر المحيط ٧/٢٢٠ .
(٣) سورة الأنعام ١٥٠ .
(٤) الكشّاف ٢/٥٣٣ .
(٥) تفسير القرطبى ٥٢٣٣ .
(٦) تفسير القرطبى ٥٢٣٣ .

أنّ الأعمال المتصلة بالبأس التى يقوم بها المنافقون أعمال تافهة إذا قيست ببعض ما يقوم به المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ، ولنذكر على سبيل المثال ، عمل علىّ كرم الله وجهه فى ميدان القتال ، حينما قضى على عمرو بن عبد ود ، وعمل حذيفة بن اليمان رسول المصطفى ﷺ إلى الأحزاب ليلة أرسل الله تعالى الرّيح والجنود عليهم ، فإنّ ذلك القليل من البأس لا يقوم به المنافقون إلاّ بشق الأنفس ، لأنهم بخلاء على المؤمنين بالنّوايا الحسنة وبالقول الطيب . فكيف بالقول الّذى فيه عزّ الإسلام والمسلمين . وقد أفصحت الآية الكريمة التّالية بحقيقة بخل هؤلاء المنافقين بل شحهم .

ونحن إذا تساءلنا عن السّر وراء موقف المنافقين السلبى من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، استطعنا أن نتبين الجواب فى الآية الكريمة التّالية . فهذا هو سر تلوّن المنـــافقين وتقلبهم من النقيض إلى النّقيض أحياناً. كلّ ذلك بدافع الحبّ العميق للذّات الّذى أصمهم وأعمى أبصارهم . قال تعالى : ﴿ **قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا** ﴾ . والآن إلى الآية الكريمة التّالية .

قال تعالى : ﴿ **أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ .

ونحن ابتداءً نستطيع أن نقسم الآية الكريمة إلى ثلاثة أقسام ، وأن ننظر إلى كلّ من هذه الأقسام الثّلاثة على حدة . وهذا هو القسم الأوّل : ﴿ **أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت** ﴾ وهذا هو القسم الثّانى : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير** ﴾ وهذا هو القسم الثّالث : ﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ ولعلك لاحظت أنّ كلاً من الأقسام الثّلاثة يتكوّن من جزئيتين صغرى وكبرى . ولعلّك لاحظت أن القسم الأوّل جاءت الجزئية الصغيرة فيه بمثابة التوطئة فى صدره ، وهذا أمرٌ طبيعى . بينما جاءت فى القسمين الباقيين ،

وهى بمثابة التعقيب ، فى العجز ، وهذا أمرٌ طبيعى كذلك .

فلنبدأ بالقسم الأوّل بجزئيتيه . قال تعالى : ﴿ **أشحّة عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت** ﴾ ولعلنا لاحظنا أنّ هذا القسم بشقية يأخذ – كما قلنا – بسبب من مواقف المنافقين من الإسلام التى أشارت إليها الآيات الكريمة السّابقة . وهذه المواقف كلّها تصبغ بالبخل الشّديد من قبلهم على الإسلام بكلّ خير . إنّهم على سبيل المثال بشأن الأحزاب يستأذنون فى الانسحاب متذرعين بأوهى الأسباب وأكذبها ويتسللون لواذا ، ويغرون المسلمين بأن يخذوا حذوهم فينسحبوا من الجبهة فى أحلك اللحظات . وهاهى ذى جزئية التّوطئة فى الآية الكريمة « أشحّة عليكم » تنصّ على السّبب فى كلّ ما يصدر عن المنافقين من سوء فى حق الإسلام . إنّه الشّحّ بكلّ خير على المسلمين . وهذا هو الّذى يمنعهم مثلاً من الإسهام الإيجابى فى حفر الخندق ، رغم معرفتهم أنّ مشركى الجزيرة العربية ، رموا المسلمين عن قوس واحدة . بل إنّ الهدف الّذى يرمى إليه المشركون هو الّذى يتمناه المنافقون ، فكيف لا يكونون شديدى البخل على المسلمين بكلّ خير ، حسّى أو معنوى ، وإذا كانت هذه التوطئة قد أشارت إلى السّبب فى حجب المنافقين الخير عن المؤمنين فى كلّ صورة ، فإن التعقيب فى الجزئية الكريمة الثّانية ، يشير إلى السّبب فى هجوم المنافقين الكلامى العنيف ، بكلّ سوء على المسلمين ويلاحظ أنّ المنافقين يمنعون عن المؤمنين طيب الفعل والقول ، ويوصلون إليهم سيىء القول فى المكان الأوّل ، وتلك عادة الأنذال ، كلّ وقت وفى كلّ حال .

وإذا كان المنافقون شديدى البخل بكلّ خير على المسلمين فى كلّ المواطن ، فإنّ شحهم يكون الغاية حينما يحسون بأبسط أنواع الخطر ، لأنّ حبّهم لذواتهم هو الطّاقة المحركة لهم ، وهو المحور الّذى يتصورون أنّ الوجود كلّه يجب أن يدور حوله . إنّهم فى السّلم مثلاً أحرص النّاس على أن ينالوا حقوقهم فى مجتمعهم بخاصّة ، وأن يضمنوا إبقاء الأبواب الّتى يمكن أن يأتيهم منها الخير مفتوحة،ولو كانت تلك الأبواب تفضى بهم للانضمام إلى خصوم قومهم وأمّتهم . ولهذا تجد المنافقين بسبب حرصهم على مصالحهم ، كما وصفهم القرآن الكريم ، مذبذبين . إنّ حرصهم على الخير لأنفسهم هو الّذى يدفعهم إلى التصرّف مع أقوامهم بما يكفل وصول حقوقهم

إليهم كاملة غير منقوصة ، وإن أخلّو بالواجبات الّتى عليهم . ومن هذه الواجبات ألاّ يمالئوا الخصوم على أقوامهم . ولكنّ المنافقين لذلك يفعلون . وإليك هذه الآيات الكريمات من سورة النّساء ، التى تبين أحسن تبيين مرامى التّوطئة والتعقيب فى الجزئتيين الكريمتين : « أشحّة عليكم » « أشحّة على الخير » وذلك بغوصها فى أعماق أنفس المنافقين . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الّذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعا . وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم . إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الّذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الّذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا . إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً** ﴾ .

وتبدو قيمة الشّحّ لدى ، المنافقين حينما يجىء الخوف . وإلى ذلك أشار عجز هذا القسم من الآية قال تعالى : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يُغشى عليه من الموت** ﴾ ونتذكر بهذه المناسبة هاتين الآيتين الكريمتين من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **ويقول الّذين آمنوا**

---

(١) سورة النساء ١٣٧ - ١٤٧ .

(٢) سورة محمد ٢٠ ، ٢١ .

لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الّذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر ، فلوصدقوا الله لكان خيرا لهم﴾ وإذا كانت آية سورة محمّد عليه الصّلاة والسلام قد أشارت إلى خوف المنافقين المتمكن منهم ، لمجرد ذكر لفظ القتال . فإنّ آية سورة الأحزاب تشير إلى موقف هؤلاء المنافقين حينما يجيء الخوف . إنّ خوف هؤلاء الجبناء ليس عليه من مزيد . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تشير بلفظ الخوف إلى ما عبرت عنه آية سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام بالقول : ﴿فإذا عزم الأمر﴾ لأن حديث سورة الأحزاب يدور حول المنافقين الّذين تسيرهم عواطفهم الجامحة . وها هو ذا الخوف يتمكن من تلك القلوب الّتى خلت من حلاوة الإيمان وطمأنينة اليقين ، لذا هى تقفز بعنف كلّ لحظة يدب فيها الفزع الّذى لا ينقطع ولا يهدأ . وها هو ذا الخوف الحقيقى يجيء بوصول جيوش الأحزاب ، وحرصها على اجتياز الخندق من أجل قتال المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ واستئصال شأفتهم . وبما أنّ المنافقين يتمسّحون دائماً وأبداًبأذيال السّلطة . وبما أنّ العزّة فى أيّ مجتمع يوجد فيه منافقون . إنما هى للمؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فمعنى هذا أن ما سيناله المسلمون من تبعات القتال ، سينال المنافقين بالضرورة شيء منها. **وهؤلاء المنافقون يرون أنهم لاناقة لهم فيما حدث ولا جمل .** وبالتالى هم مظلومون فيما لو فرض أن نالهم شيء من الأذى الّذى ينال المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى بأنفسهم وأموالهم . إنّ هؤلاء المنافقين يضنون على المسلمين بأى دعم مادى أو معنوى . فلماذا إذا نالهم شيء من الأذى الّذى يستحقه كلّه المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ؟ إنّ من حق المنافقين فى اعتقادهم ، وهم المضطرون لأن يقوموا بدور الشخص الإمعة ، أن يتمتعوا ويأكلوا كما تأكل الأنعام ، لا أن ينالهم أدنىأذًى هم مبغضون له ، وليسوا سببا فيه . هذا هو منطق القوم ، وهم الّذين استغنوا عن الله تعالى فاستغنى جلّ وعلا عنهم . وانصرفوا فصرف الله تعالى قلوبهم بأنّهم قوم لا يفقهون . وإذا كان هؤلاء المنافقون زاهدين فى أبسط أنواع الأذى أن ينالهم اضطرارا بسبب انتمائهم للمسلمين ، فكيف شعورهم تجاه الموت الزؤام الذى يتصوّرونه بخيالاتهم المريضة واقعاً بهم بين لحظة وأخرى بسبب مجيء الأحزاب ؟ إنّ شعورهم هو الخوف كلّه . وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة

مستعملة جملة جاء الدّالة على القرب ، أى على مجيء الخوف فعلاً ووصوله إلى هؤلاء المنافقين الجبناء . قال تعال : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت** ﴾ .

وأشحّة : انتصب على الحال[1] ويجوز أن تنصب أشحّة على الذّم[2] .

والخطاب فى القول : « رأيتهم » للمصطفى ﷺ ، باعتباره المحور لكلّ الأحداث الّتى تجرى ، بما فى ذلك كونه السّبب الّذى من أجله جاء الخوف إلى المنافقين وحلّ بهم . أليس هو الذى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ؟ أليس هو الّذى جاء بالهدى ودين الحقّ ليظهره الله تعالى على الدّين كلّه ولو كره المشركون . أليس هو الّذى أذن له ولقومه المؤمنين بالدّفاع عن أنفسهم ، ثمّ بقتال الّذين يقاتلونهم ، ثمّ بقتال المشركين كافة كما يقاتلهم المشركون كافة . وهؤلاء المشركون كافة قد رموا النبى ﷺ وصحبه الكرام فى غزوة الأحزاب عن قوس واحدة ، وتوشك تلك السّهام ، وهى بمنزلة المنايا التى تخطىء وتصيب ، أن تخطىء المؤمنين وتصيب المنافقين الّذين يرون أنّهم لا يستحقون فى الحقيقة تلك السّهام ، ولا الموت الزّؤام ، إنما يستحقون أن يتمتعوا ويأكلوا كما تأكل الأنعام . فإذا جاء الخوف جسّمت خيالات المنافقين المريضة الأمور . فتحول الخوف موتا زؤاما واقعا بحقهم . فاتجهت أبصارهم إلى المصطفى ﷺ ، باعتباره المنعم عليه الّذى يجرى على لسانه الوحى القرآنى وفيه الذّكر المجرّد للقتال ، ولكن المنافقين يتخيلونه قتلا فعليا لهم ، فكأنهم يساقون إلى الموت صبرا ، وهم يرسفون فى السلاسل وقد شدت القيود أيديهم وراء ظهورهم شدا ، فى طريقهم إلى تنفيذ الحكم بالموت عليهم . وباعتباره ﷺ محور الأحداث – كما قلنا – فالّذى يحدث الآن للمنافقين ، له أكبر الدّور فيه ، باعتباره ﷺ الملاذ الذى يحتمى به المنافقون ساعة الشّدة . والمعروف أن الخوف يتجلى على وجه المرء ، بأكثر ممّا يتجلى فى أى جزء من أجزاء جسمه الظّاهرة . وإذا كان حظّ كلّ من العين وامتقاع اللون كبيراً فى الدّلالة على الخوف ، فالمعروف أنّ حظّ العين

---

(١) تفسير الطبرى ٨٩/٢١ وانظر البحر المحيط ٢٢٠/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٢٣٥ والكشّاف ٥٣٤/٢ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ص ٥٢٣٥ والبحر المحيط ٢٢٠/٧ والكشّاف ٥٣٤/٢ .

فى الدّلالة عليه هو الأكبر . إنّ العين قادرة دائماً وأبدا على أن تخبر عن القلوب حبّا وبغضا ، ويرتبط بالبغض الخوف . فكيف إذا كان الخوف هو ذلك النّوع الّذى تمكن من قلوب المنافقين الجبناء أعداء الإسلام الّذين يعتقدون أنّهم فيما يحلّ بهم من موت محقق ضحايا الإسلام . وها هو ذا المصطفى ﷺ ينبهه ربُّ العزّة إلى أنّه يستطيع بعينيه أن يرى فى أعين المنافقين ، المدى البعيد للخوف الّذى استبدبهم . إنّ أنظار المنافقين متجهة إليه ﷺ . وكأنه ﷺ للأسباب الّتى ذكرنا – هو الّذى سيصدر الأمر بإطارة رءوسهم وتحويل ذلك القول إلى عمل فورى . وبسبب انهزامهم المقيت نفسيا أمام الأحداث . وهم الّذى تمكن منهم العجز ، واستبد بهم اليأس ، وتوقعوا الموت الزّؤام أن يبغتهم من كلّ ناحية ، لذا فإنّ أعين هؤلاء المنافقين ، رغم انجذابها الشّديد اضطراراً إلى المصطفى ﷺ ، السّبب الرّئيسى فيما حلّ بهم من ويل وثبور وعظائم الأمور ، هى تقوم بحركة دائرية مستمرة . وكلّ مرّة تبتعد فيها الأعين ، وهى فى حركتها الدّائرية ، عن محطتها الرّئيسية المركزية ، أعنى المصطفى ﷺ ، هى ترقب ثغرة ذات اليمين ، أو تلمح ثلمة ذات الشمال . هى تبصر منفذا هنا أو فرجة هناك . يحدث كل ذلك باستمرار ، للأعين وحدها ، التى لا تكف مطلقا عن حركتها ، الجنونيّة الدّائرية أو الشبيهة بها ، المتنقلة بين منافذ الموت الّتى لا تحصى ، والتى تحيط بالمنافقين الجبناء ، الذين يرون غير شىء شيئاً ، وبين المصطفى ﷺ ، السّبب الأوّل فما حلّ بالمنافقين .وكأنه عليه الصّلاة والسّلام ، هو الذى يجرى على لسانه الحكم بإعدام المنافقين وكأن التنفيذ يمكن أن يتم كل لحظة من قبل كلّ المنافذ . فلا غرو أن تكون من الأعين تلك الحركات الجنونيّة الّتى تكاد تكون موزعة بالتساوى بين المصطفى من ناحية وبين كلّ منافذ الموت من ناحية أخرى .

لقد كان الأولى بالمنافقين أن يستمدوا بعون الله تعالى الطمأنينة منه ﷺ . لأن الّذى يقع إنّما هو قضاء الله تعالى وقدره . وعن طريق هذا الذى يقع سيكون بإذن الله تعالى النّصر أو الشّهادة . وبذلك يقضى على جذور الخوف أصلا . إنّ تلك الحال إنّما تكون من نصيب المؤمنين المتقين الّذين إذا قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، وبذلوا غاية جهدهم فى الذب

عن بيضة الإسلام . أماّ المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بالنفاق على حساب الإيمان ، فإنهم بطبعهم يتخيلون غير الشيء شيئاً . فكيف بهم وهم يرون جيوش الأحزاب وقد غطّت كلّ حزن وسهل . إن عين كلّ واحد من هؤلاء المنافقين تدور فى رأسه بسبب الخوف المتمكن منه . كما تدور عين الذى يغشى عليه من الموت فعلا . إنّ هذا الّذى يغشى عليه من الموت وهو يكابد سكراته يصفرلون وجهه ، وتجحظ عيناه ، وتدور الحدقة كيفما اتفق باستمرار ، وكأنها تلاحق فى إقبالها وإدبارها شيئاً بل أشياء . وإن شهود الوفاة إذا كانوا لايرون شيئاً ممّا يراه المتوفى ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى من سورة الواقعة[1] : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ فإنّ المؤمنين المتقين لا يبصرون بإرادة الله تعالى شيئاً واحداً من الأشياء الكثيرة التى لا ينقطع المنافقون عن إبصارها بنفوسهم الخبيثة ، وقلوبهم المريضة ، وعقولهم الضالة . « وتدور فى موضع الحال ، أى دائرة أعينهم كالّذى فى موضع الصفة لمصدر محذوف ، وهو مصدر مشبه . أى دورانا كدوران عين الّذى يغشى عليه . فبعد الكاف محذوفان ، وهما دوران وعين . ويجوز أن يكون فى موضع الصفة لمصدر من ينظرون إليك نظرا كنظر الّذى يغشى عليه[2] ويقول الطبرى »[3] : « كدوران عين الّذى يغشى عليه من الموت النازل به » . قال تعالى : ﴿ **أشحّة عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يُغشى عليه من الموت** ﴾.

ونتحوّل إلى القسمين التاليين فى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم . وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ . لقد عرفنا تصرّفات هؤلاء المنافقين الجبناء الفطرية ساعة الخوف وقد جاء . فما هى تصرّفات هؤلاء المنافقين الجبناء أنفسهم بعد ذهاب الخوف ؟ أن يتحوّلوا من النقيض إلى النقيض . فبعد أن كانوا ساعة الجدّ أجبن خلق الله تعالى عن عمل ، هم بعد ذهاب . الخوف أجرأخلق الله تعالى على قول كلّ منكر من القول وزور .

---

(١) الآيات ٨٣ - ٨٥ .
(٢) البحر المحيط ٧/٢٢٠ .
(٣) تفسير الطبرى ٢١/٨٩ .

فما معنى السَّلق فى اللغة ؟ نستطيع أن نفهم معنى السّلق من قولهم : سلقه بالسَّوط إذا نزع جلده[1] ويكون ذلك ناتجا عن الضّرب الّذى يرتبط به صوت واجتراء على المضروب وإيلام . ومِنْ هنا كان من معانى السَّلق الضرب[2] وشدة الصوت[2] وشدة القول باللسان بقصد إسماع الخصم ما يكره والإكثار من ذلك[3] وروى عن النبى ﷺ أنه قال : ليس منا من سلق أو حلق . أبو عبيد سلق يعنى رفع صوته عند موت إنسان أو عند المصيبة .. ومن السّلق رفع الصوت قولهم : خطيت مسلق . وسلقه بلسانه يسلقة سلقا ، أسمعه ما يكره فأكثر . وسلقه بالكلام سلقا إذا آذاه . وهو شدّة القول باللسان. وفى التنزيل : سلقوكم بألسنة حداد أى بالغوا فيكم بالكلام ، وخاصموكم فى الغنيمة . أشدّ مخاصمة وأبلغها[4] : « الفرّاء : سلقوكم بألسنة حداد معناه عضوكم . يقول : آذوْكم بالكلام فى الأمر بألسنة سليطة ذربة »[5] ويقول الطبرى[6] : « عضوكم بألسنة ذربة » .

لقد وصفت الآية الكريمة ألسنة المنافقين فى هجومهم الشرس على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بأنها ألسنة حادّة فكأن ما تقذف به ، ظلما وعدوانا ، من عُوَّار الكلام ، أسنة رماح ذربة ، أورء وس رماح نفاذة ، أو مضارب سيوف بتارة . فهؤلاء المنافقون الجبناء فى ميادين الرّجولة والبطولة ، أجرأ خلق الله تعالى كذبا على المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى حقّ الجهاد ، زاعمين أنّهم هم أولو الفضل ، منتحلين لأنفسهم أمجاد المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى وبطولاتهم .
قتادة .. أمّا عند الغنية فأشحّ قوم وأسوأ مقاسمة . اعطونا اعطونا ، فإنا قد شهدنا معكم . وأمّا عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحقّ »[1] وهم مع ذلك أشحّة على الخير أى ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير . فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :

---

(١) لسان العرب « سلق » .
(٢) لسان العرب « سلق » .
(٣) انظر لسان العرب « سلق » .
(٤) لسان العرب « سلق » .
(٥) تفسير الطبرى ٢١/٩٠ .
(٦) تفسير الطبرى ٢١/٩٠ وتفسير ابن كثير ٣/٤٧٤ .

أفى السّلم أعيارٌ جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى فى حالة المسالمة كأنهم الحمر والأعيار جمع عَيْر وهو الحمار وفى الحرب كأنهم النساء الحيض[٢] .

إنّ حقيقة هؤلاء المنافقين أنّهم يتربصون بالمؤمنين الدّوائر . وهم حريصون على الكسب من الفريق المنتصر ، أى فريق سواء أكان المنتصرون المؤمنين أو الكافرين . إنّهم لا يستحيون من أن ينسبوا إلى أنفسهم أمجاد الآخرين . بل أن يلصقوا بالآخرين نقائصهم . ولوفرض أن الفريق المنتصر هم الكافرون ، لكان منهم الادعاء بأن انتصارهم على المؤمنين إنّما كان بنصرتهم لهم . وإلى هذا التذبذب والتقلب والتلوّن فى الولاء من قبل المنافقين المتربصين الدّوائر بالمؤمنين أشار قوله تعالى[٢] : **﴿ الّذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم . وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين . فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾** . ومعنى : ألم نستحوذ عليكم ، ألم نستول عليكم ونقدر على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم[٣] .

وإذا كان المنافقون شديدى البخل على المؤمنين بأدنى مساعدة فإنّهم بعد ذهاب الخوف ، شديدو الحرص على المال والغنائم . لقد أشار إلى الحال الأول ، التّوطئة بين يدى الجزء الأول فى الآية الكريمة « أشحّة عليكم » وأشار إلى الحال الثانى التعقيب على الجزء الثّانى فى الآية الكريمة : « أشحة على الخير » وأشحّة على الخير حالٌ من المضمر فى سلقوكم وهو العامل فيه[٤] وحينما يحرص المرء على أن يكون كلّ الخير له ، فذلك بطريقة آلية معناه أنّه حريص على صرف كلّ خير عن الآخرين . وهذا هو حال المنافقين بعد انتصار المؤمنين بفضل الله تعالى ثم باجتهادهم . هم يعملون بمشاغباتهم الكلامية ، مدفوعين بحرارة الطمع وشهوة الحرص ، على أن يجعلوا الحقّ باطلا والباطل حقّا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٤ .

(٢) سورة النساء ١٤١ .

(٣) تفسير الجلالين .

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٣٥ .

وإذا كان المؤمنون بطبعهم ، كما وصفهم المصطفى ﷺ فى ثنائه على الأنصار ، يكثرون وقت الفزع ويقلون وقت الطمع ، وهذا هو منتهى ما يتمنى المنافقون ، بأن يكون كلّ الغُرْم على المؤمنين ، وبأن يكون كلّ الغنم لهم وهم المنافقون ، فإنّ ربّ العزّة ، الّذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ينصف المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا وينتصر لهم ويفضح المنافقين ويخزيهم . إنّ الآية الكريمة تنزع عن المنافقين الحلّة التى يتزيون بها رياء وسمعة ، ويتيهون بها أشرا وبطرا ، ألا وهى حلّة الإيمان الّتى استعارها المنافقون لأغراضهم الحقيرة . وبذلك يفتضح المنافقون على رؤوس الأشهاد « ومن يهن الله فما له من مكرم »[1] أولئك لم يؤمنوا إنّ هؤلاء المنافقين لم يؤمنوا وقتا من الأوقات ، إنّما هى تجارة بالإيمان رابحة ، ساعة انتصار المؤمنين . فإذا انتصر الكافرون كان الوجه الآخر للعملة الزائفة ، وهو وجه الكفر الّذى يتزيا به المنافقون من أجل متاع الدّنيا الرّخيص ذاته وأغراضهم الخسيسة ذاتها .

ولعل الّذى أوهم المنافقين بأنّهم لاحقون بالمؤمنين ، بعضُ الأعمال المتعارف عليها بأنّها طيبة ، كالّتى يقوم بها إخوانهم الكافرون مثلاً ، من إغاثة ملهوف ، وإكرام ضيف، ورعاية حقوق جار ، إلى غير ذلك من أعمال صالحة فى اعتقادهم ، تنضوى تحت راية ما يُسَمى ذلك بالمروءة . وهنايتبادر سؤال : هل أراد المنافقون وإخوانهم الكافرون وجه الله تعالى بتلك الأعمال ، أم أرادو بها الرّياء والسمعة ؟ إنهم أرادوا الرّياء والسمعة . ولم يريدوا بها وجه الله تعالى ، بدليل أنهم جيمعا أشح خلق الله تعالى بأى نفع للمؤمنين المتقين بقيادة المصطفى ﷺ . وما الّذى يستحق هؤلاء المنافقون مقابل أعمالهم الطيبة الّتى لم يريدوا بها وجه الله تعالى ، تماماً كما لم يرد المشركون بها وجه الله تعالى فأحبطها جلّ وعلا ؟ يستحقون أن تحبط أعمالهم فلا شىء من ثواب لهم . ووراء ذلك عليهم أوزار ما ارتكبوا من آثام . وفى مقدمتها النّفاق الّذى استحقوا من أجله أن يقول الله تعالى عنهم فى محكم كتابه[2] : ﴿ **إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النار** ﴾ .

إنّ الكافرين إذا كان الله تعالى قد أحبط أعمالهم فى مثل قوله عزّ من قائل[3] :

---

(١) سورة الحج ١٨ .

(٢) سورة النساء ١٤٥ .

(٣) سورة الفرقان ٢٣ .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وقوله[1] : « إنّ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرّسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ﴾ فإنّ المنافقين إخوانهم استحقوا المصير ذاته . قال تعالى : ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

وربّما كان مفيدا أن نبين الملاءمة بين طمع كلّ من المنافقين والكافرين فى الحصول على جميع الخير ، وبين استعمال القرآن الكريم فى المقابل جملة أحبط وما شاكلها . إنّ هذه الجملة « أحبط » وما شاكلها ذات علاقة بالحبط ، بالتحريك ، وهو وجع يأخذ البعير فى بطنه مِنْ كلأ يكثر منه[2] فتنتفخ منه فلا يخرج منه شيء وحبط كفرح[3] واسم الدّاء : حُباط (بضمّ الحاء) وحبط عمله كسمع وضرب حبطا (بسكون الباء) وحبوطا (بضم الحاء) بطل . ودم القتيل هدر . وأحبطه الله : أبطله . وماء الرّكية ذهب ذهابا لا يعود[3] وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف ، توضيحا للبلاء الّذى يحلّ بالمستكثر الأكل من الطعام المستوبل قوله ﷺ : وإنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يَقْتُلُ حبطا أو يلم[4] وقد فسر هذه الجزئية من الحديث ابن منظور فقال رحمه الله تعالى[5] : فأمّا قوله ﷺ : وإنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبطا ، فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع . وذلك أنّ الرّبيع ينبت أحرار العشْب الّتى تحلوليها الماشية فتستكثر منها ، حتّى تنتفخ بطونها وتهلك . كذلك الّذى يجمع الدّنيا ويحرص عليها ويشحّ على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها ، يهلك فى الآخرة بدخول النّار واستيجاب العذاب»وهذا هو حال المنافقين والكافرين .

لقد نصّت الآية الكريمة على أنّ الله تعالى قد أحبط أعمال المنافقين ، أى أذهب الله أجور أعمالهم وأبطلها[6] وكان ذلك الإحباط يسيرا على الله تعالى ، لأنّهم

---

(١) سورة محمد ٣٢

(٢) انظر اللسان والقاموس ، حبط ، .

(٣) القاموس ، حبط ، .

(٤) لسان العرب ، حبط ، .

(٥) لسان العرب ، حبط ، .

(٦) تفسير الطبرى ٩٠/٢١ .

يستحقون ذلك الإحباط ، ولأنه جلّ وعلا ، لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السّماء . وحينما يعذب جلّ وعلا فبعد له ، وحينما يعفو فبفضله . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السّماوات والأرض . يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . والله على كلّ شيء قدير** ﴾ وقال[2] : ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ وقال : ﴿ **أشحّة عليكم . فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** » .

ونتحوّل مستعينين الله تعالى إلى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم . ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا** ﴾ .

عرفنا ، بنصّ القرآن الكريم ، أن هؤلاء المنافقين بعكس المؤمنين المتقين فى الصفات تماماً . إنّ الأنصار مثلا إذا كانوا يكثرون وقت الفزع ، ويقلّون وقت الطمع ، فإنّ هؤلاء المنافقين بعكسهم . يقلون بل يختفون وقت الفزع ، ويكثرون وقت الطمع . ومع أن المنافقين الآن ، وقد نصر الله تعالى عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، أشحّ خلق الله تعالى على المال والغنيمة ، تماماً كما كانوا وقد جاء الخوف أشحّ خلق الله تعالى على المؤمنين بأدنى خير ، فإنّهم وهم الّذين تسيّرهم عواطفهم فى كلّ اندفاعاتهم المنحرفة المختلفة الاتجاهات ، ما لبثوا تحت وطأة عواطفهم الجامحة المنحرفة القلقة أن تساءلوا : هل حقا ذهب الأحزاب ؟ وإذا كانوا قد ذهبوا ، فهل بدا لهم ، كما بدالهم بعد هزيمة المسلمين فى أحد ، أن يكروا مرّة أخرى على المدينة المنوّرة ، كى يستأصلوا المسلمين الّذين غادروا من قريب مواقعهم بعد ذهاب الأحزاب ؟ وإذا كانوا قد عدلوا بعد غزوة أحد من الكرّة الثانية على المدينة المنوّرة ، لأنهم شفوا أنفسهم ممّا تجد على المسلمين ، بينما لم يتحقق لهم شيء من ذلك هذه المرّة ، فلعلّ هذا الاختلاف بين الموقفين حافز قوى للأحزاب على أن يعاودوا الكرة على المؤمنين

---

(١) سورة المائدة ٤٠ .

(٢) سورة المائدة ١٠٠ .

بقيادة المصطفى ﷺ . وهكذا تتجاذب المنافقين ظنون السّوْء هذه وما شاكلها . ومتى عاودت المنافقين هذه الظّنون السيّئة ؟ أبعد أن ذهب الأحزاب مباشرة كى يظن أنّ هؤلاء الأحزاب لم يذهبوا إلاّ من أجل الإيقاع بالمسلمين عن طريق كرّة أخرى مفاجئة خاطفة عاجلة ؟ لا لم يكن هذا الظّنّ من المنافقين فى ذلك الوقت المبكّر ، لأنهم فى مثل هذا الوقت يكونون مشغولين بسلق المسلمين بألسنة حداد ، طالبين بإلحاح أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، بإعطائهم أو فى حظّ من المال والغنيمة . إنّ المنافقين الّذين تتجاذبهم الانفعالات الحاقدة على الإسلام ، وتتقاذفهم الظّنون السّيّئة فى حقّه وحقّ أهله ، بعد أن يكونوا قد حصلوا فى اعتقادهم على كلّ خير ، وفق وسائلهم اللئيمة . أثناء الحرب وبعيدها ، بتظاهرهم أنهم مع كلّ من الفريقين ، فإن كان للمؤمنين فتح من الله قالوا ألم نكم معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ قد تبينوا أنّهم قد أعطوا الدّليل للكافرين بأنهم فى صف المؤمنين . وهم لا يريدون مثل هذا الدّليل على أنفسهم . إنّما يريدون أن يلعبوا على كلّ الحبال ، دون أى تبعة عليهم أو حتى سؤال . وهنا وقد بردت فرحتهم ، ظهر على حقيقته قلقهم المستمر واضطراب أنفسهم العنيف ، الذى لا يكاد يغيب من الوجود إلاّ حينما يمتصّه إلى حين فرحهم بالمال والغنيمة . وها هو ذا الخوف يعاودهم من عودة الأحزاب مرّة أخرى . فلعلهم إنّما انسحبوا كى يعيدوا الكرّة ؟.

وحينما نذهب إلى كون هذه الوساوس لم تكن سريعة الولادة بعد هزيمة الأحزاب مباشرة ، فإنا وراء ذلك نعتقد أنّها نبتت فى نفوس المنافقين ، وأخذت تنمو ويغلظ ساقها وتمتد أغصانها وتطرح ثمارها النّكدة ، فى أثناء فترة طويلة ، لعلّ الأحزاب الّذين انهزموا ولا يلوون على أحد ، قد وصلوا خلالها فعلا إلى ديارهم النّائية . فعلى سبيل المثال ، تستطيع قريش أن تصل مكة خلال اثنى عشر يوما بالتّمام والكمال . أمّا دليلنا نحن على كون هذه الأوهام ، إنّما هى وليدة أنفس المنافقين المريضة الّتى حملت تلك الأوهام ووضعتها بعد تمام الحمل خلقا مشوه الخلقة ، قبيح الصّورة ، فمأخوذ من الآية الكريمة التى تستعمل بشأن عودة الأحزاب ، لو فرض أنّهم قد

عادوا ، الجملة الّتى تدلّ على بعد الشقة . ويرتبط بذلك طول الفترة الزّمنية . أمّا هذه الجملة فهى أتى من القول : وإن يأت الأحزاب .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة السّابقة تستعمل بشأن وصول الخوف فعلا جملة « جاء » والمعروف أن القرآن الكريم حينما يريد مثلاً أن يركز على بلوغ الغاية ، والوصول إلى النّهاية ، يستعمل جملة « جاء » ويرتبط بذلك القرب المكانى والزمانى والمعنوى . وحينما يريد مثلا أن يركّز على بعد الشقة ، يستعمل جملة « أتى » ويرتبط بذلك البعد المكانى والزّمانى والنّفسى . فلنتدبّر الآية الكريمة من هذه الزّاوية ، فى سبيل التعرف على المدى العميق للقلق النفسى الذى يعيش المنافقون فيه فعلا . قال تعالى : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم . ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا** ﴾ إنّ هؤلاء المنافقين لو علموا أنّ الأحزاب يريدون أن يعيدوا الكرّة على المدينة المنوّرة ، فإنهم يتمنون من أعماقهم أن يكونوا بادين فى الأعراب منذ اللحظة الّتى تفصل فيها خيل الأحزاب وعيرهم من بلادهم . وتدبّر أسلوب الشّرط فى الجزئية الكريمة الّذى يربط بطبعه بين شقى الكلام . ويبنى النصف الثانى على الأوّل . وبهذا يتبين أنّ الكلام ليس بسيطا ولا عادياً .

وإذا كان المفهوم من السّياق أنّ الأحزاب سيأتون من مكان ناء عن المدينة المنوّرة ، فإنّ المفهوم من السّياق كذلك ، أنّ المنافقين يتمنون وقتها أن يكونوا كذلك نائين عن المدينة المنورّة . ولعلّهم يتمنون أن يكونوا نائين عن المدينة فى الاتجاه المعاكس للاتجاه الّذى يأتى منه الأحزاب . أليس هؤلاء المنافقون البادون فى الأعراب هم الّذين يسألون عن أنباء المؤمنين ؟ وكيف يصحّ هذا السّؤال منهم إذا لم يكونوا بعيدين فعلا عن المكان الّذى يمرّ به الأحزاب ؟ وكيف لا يكونون فى غير المكان الّذى يمرّ به الأحزاب بل فى المكان المعاكس له فى الوجهة ، وهم الحريصون بعد انتصار المؤمنين ، أن يأخذوا أكبر حظ من المال والغنيمة ، مدّعين لأنفسهم كلّ فضل يسلبون المجاهدين إيّاه ، وذلك دليل عليهم ، يكفى فى نظر الأحزاب لأن يفهموا منه على أقل تقدير أن المنافقين منافقون معهم ومع المؤمنين . وبذلك هم يستحقون نوعا من العقاب والتّأديب على كل حال .

وكى يتبين المدى البعيد لمرض هؤلاء المنافقين نفسيًا ، فى فرارهم إلى أقصى الأرض المقابلة تماماً للاتجاه الّذى يأتى الأحزاب منه إلى المدينة المنوّرة ، منطلقين من أماكنهم النّائية وكأنّ المسافة بين مكان انطلاق الأحزاب وبين المدينة المنوّرة ، لا يريدها المنافقون أن تنقص بحال من الأحوال ، لتعويضهم النقص النّاجم عن تحرّك الأحزاب إلى المدينة بتحرّكهم هم أنفسهم من المدينة فى الاتجاه المقابل . ولعلّ سرعة المنافقين فى الفرار من المدينة ، أكبر من سرعة الكفار إلى المدينة ، فى إمكاننا أن نتدبر لفظتين اثنتين فى السّياق ، لفظة بادون ولفظه الأعراب .

أمّا القول « بادون » فالمراد أنّ هؤلاء المنافقين ، إذا جاءت الجنود والأحزاب ودّوا أنهم فى البادية[1] والبادية والبدو خلاف الحضر[2] وبدا القوم بداء ، خرجوا إلى البادية . وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها . وقيل للبرية بادية لأنّها ظاهرة وبارزة . وقد بدوت أنا وأبديت غيرى . وكلّ شيء أظهرته فقد أبديته ويقال : بدا لى شيء أى ظهر[3] فهؤلاء المنافقون يتمنون أن تكون الأرض الّتى يفرون إليها من ذلك النّوع البارز الظاهر بالذات وبذا هم يضمنون رؤية الأحزاب لو هاجموهم من كلّ ناحية ، كما يضمنون القدرة على الفرار فى كلّ ناحية !

وأى بادية هذه التى يريدها المنافقون بل يتمنونها ؟ إنّها ليست أى بادية . وقد فهمنا من جملة « أتى » أنّ هذا النّوع من البوادى ناء بطبعه . وإنّ دليلنا الآخر على هذا النوع النّائى من البوادى يفهم من استعمال الآية الكريمة اللفظة الثّانية ، التى رغبنا فى الوقوف عندها مليا وهى لفظة الأعراب . ونودّ من ناحيتنا ابتداءً أن نقرّر أن هؤلاء الأعراب ، بناءً على استعمال القرآن الكريم لهذه اللفظة ، ووصفه لهؤلاء الأعراب ، يعتبرون أكثر خلق الله تعالى غلظة وقسوة وفظاظة ، وأسرع خلق الله تعالى ارتداداً إلى الباطل ، وتمادياً فيه ، وتقلبا فى الضلال وتلوّنا . ويكفى أن نتدبّر هذه الآيات الكريمات من سورة براءة ، كى نتبين أنّ هذه هى الصفات الغالبة على الأعراب . قال تعالى[2] : **﴿ الأعراب أشدّ كفرا ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما**

---

(١) اللسان « بدا » .

(٢) اللسان « بدا » .

(٣) سورة براءة ٩٧ - ٩٩ .

ويتربصّ بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْء والله سميع عليم ﴾.

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات، الرّسول ألا إنّها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته . إن الله غفور رحيم ﴾ وفى الإمكان أن نقسّم سكّان الجزيرة العربيّة آنذاك عموماً إلى ثلاثة أقسام ، وفق حظهم من الحضارة .

أوّلا : سكّان المدينة الّتى يطلق عليها القرآن الكريم كذلك لفظة القرية . فالمدينة والقرية فى القرآن الكريم بمعنى واحد[1] وكى نعرف حظّهم الموقور من الحضارة يمكن أن نتبين حكمة الله تعالى الّتى اقتضت ألاّ يبعث رسولا إلاّ من أهل القرى ضمانا لنجاح الدّعوة ، لأنّ أولئك السّكّان أصحاب ذوق حضارى ، ومستوى رفيع من العلم والقدرة على التمييز بين صحيح الأقوال وزائفها ، طيب الأعمال وسيئها ، نقى المعادن وبهرجها . ومن أوضح الأدلة على ذلك قوله فى سورة يوسف عليه السّلام[2] : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون** ﴾.

ثانياً : سكّان الأماكن القريبة من الحواضر أو المدن . وهذه الأماكن تسمّى فى عرفنا الحالى بالقرى . ولسكّانها نصيب من كلّ من الحضارة والبداوة ، وهؤلاء يلون السابقين فى القدرة على الفهم والإدراك والتذوّق .

ثالثاً : الأعراب . وقد عرفنا وصف الله تعالى لهم فى آيات سورة براءة ولهذه الأسباب كان حرص المنافقين على أن يكونوا فى بعدهم عن النبى ﷺ ، ليس فى أى مكان ناء ، إنّما فى أماكن بعينها ، ومع أقوام معينين ، يشتركون مع المنافقين فى الكثير من الصّفات السّيئة وفى مقدمتها ، التخلف عن القتال فى صفوف المؤمنين ، بل الفرار من ميدان المعركة . أليس هؤلاء الأعراب هم الّذين جاء عنهم فى سورة براءة ما يفيد اشتراكهم مع المنافقين فى صفة النّفاق . قال تعالى[3] : ﴿ **وممن**

---

(١) انظر الآيتين الكريمتين من سورة يس ١٣ ، ٢٠ .

(٢) الآية ١٠٩ .

(٣) سورة براءة ١٠١ .

حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرّتين ثمّ يردون إلى عذاب عظيم ﴾ أليس هؤلاء الأعراب هم الّذين يتخلفون بطبعهم عن القتال مع المؤمنين كالمنافقين سواء بسواء ، وقد جاء عنهم فى سورة الفتح مثلاً قوله تعالى[1] : **﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون . فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولّوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ﴾** .

إنّه من الطّبيعى إذن أن يفر الشّكل إلى مشكله والنظير إلى نظيره وقد قيل : إن الطّيور على أشكالها تقع : قال تعالى : **﴿ وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾** .

وانظر إلى الجملة التى يستعملها القرآن الكريم دليلاً على بغض المنافقين للإسلام وأهله وكلّ خير يمكن أن يلحق به . إنّها جملة « يودّوا » الدّالّة على الحبّ الشّديد من المنافقين للبادية بدلا من المدينة الّتى ثبت أنها كالكير تنفى خبثها بعيدا عنها . « وللأعراب » بدلا من حبهم للمصطفى ﷺ والصحابة الكرام البررة . وإنّ استعمال الودّ بشأن البادية والأعراب معناه البغض للمدينة وللمؤمنين . ولا نملك تجاه عمى البصيرة هذا إلاّ أن نقول[2] **﴿** فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصّدور **﴾**.

وإنّ هذه الجملة **﴿** يسألون عن أنبائكم **﴾** إضافة قوية لفرار المنافقين من ميادين الشّرف والبطولة ، إلى أنأى الأماكن ، ممّا هو معمق لبغضهم الشديد للمؤمنين . أمّا الفرار البعيد من ميادين الشّرف فنفهمه من كونهم فى سبيل معرفة ما يرغبون معرفته عن المؤمنين ، وقد ابتعدوا عنهم كلّ ذلك الابتعاد ليس لهم من وسيلة سوى السّؤال عن أنباء المؤمنين ، لأنهم وقد فرّوا من ميادين الشّرف والرّجولة أجبن من أن يحوموا حول المدنية لمجرد السّؤال . إنّما يسألون كلّ من عاد مصادفة من تلك النواحى . وأمّا بغض المنافقين للمؤمنين ، فإنّا نفهمه من كونهم وقد فارقوا المؤمنين ، لا يريدون إلاّ أن يتشفوا منهم عن طريق تربّص الدّوائر الّتى يتمنون – فى أسئلتهم

---

(١) سورة الفتح ١٦ .

(٢) سورة الحجّ ٤٦ .

وطريق طرحها – أن تلحق المؤمنين . وكأنّهم لا يريدون فى المقابل ، أن يصل المؤمنين أى خير ، لأنّ مجيء الخير إلى المؤمنين معناه حرمان المنافقين من ذلك الخير الّذى كأنّه ذهب عنهم باختيارهم ، وانصرف عنهم بمحض إرادتهم ، لأنّهم هم الّذين رغبوا فى الفرار نجاة بجلودهم ، تاركين المصطفى ﷺ والمؤمنين للمصير المحتوم الّذى اعتقد المنافقون أنّه كلّ الشّؤم والبلاء .

وبعد أن بيّنت السّورة الكريمة حقيقة نوايا المنافقين ، كأنّه يتبادر إلى الذهن سؤال مهم وهو : وهل فى بقاء هؤلاء المنافقين فى جيش المسلمين من مصلحة ؟ فلعلّ فرار المنافقين من ميدان القتال ممّا أحزن المصطفى ﷺ والمؤمنين . والجواب بطبيعة الحال : لا مصلحة من بقاء المنافقين مطلقا . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة فى معرض تسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين ، وتحقيراً لشأن المنافقين إنّ هؤلاء المنافقين لو كانوا فى جيش المؤمنين لكان أذاهم أكبر من نفعهم ، لأنا لو تجاوزنا قوله تعالى فى سورة براءة عن هؤلاء المنافقين[1] : ﴿ **لو خرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾ والخبال هو الفساد بتخذيل المؤمنين ، ولأوضعوا خلالكم معناه أسرعوا بينكم المشى بالنميمة ، فإنّ منتهى ما يقوم به هؤلاء المنافقون حينما يجدّ الجدّ بقصد الرّياء والسّمعة ، أن يرموا مثلاً بالحجارة الّتى يمكن أن يطوّحوا بها كلّ وجهة ، دون أن يصيبوا بها العدوّ ، رغم ضعف مفعول هذه الحجارة الّتى يكون أساسا اللّجوء إليها أخيرا بعد أن تتقصف رماح الأبطال ، وتتكسّر سيوفهم ، وتنفد نبالهم لا أن يبدأ المقاتلون القتال بها ، لأن الابتداء بها معنا الابتداء من نقطة الهزيمة وبداية النّهاية ، ولكنّ ذلك هو عمل المنافقين الحريصين على انهزام المسلمين ، باللّجوء إلى أضعف وسائل القتال ، فى الوقت الّذى يلجأ فيه خصوم الإسلام إلى أشدّ الأسلحة فتكا ، وأسرعها مضاءا . وقد يلجأ المنافقون إلى النبال ، والمعروف أنّها فى حالة إخلاص الرّامين بها بمثابة المنايا الّتى تخطىء وتصيب ، فيكف إذا كان الرّموان بها مخادعين غشّاشين . وربما لجأوا إلى الرّماح ، الّتى تضمن بُعدا معيّناً من الخصم ، يتيح للمنافق الجبان ، إن تبين أنّ المعركة ليست فى صالحة ، والغنيمة ليست فى حوزته أن يفرّ . أمّا أن يستلّ المنافقون

---

(١) سورة براءة ٤٧ .

السّيف الّذى تثكل بسببه أحد الخصمين أمّه ، فهذا مالا يخطر للمنافقين على بال . فكيف بالمرحلة الأخيرة حقاً ، والّتى يلجأ إليها الأبطال بعد تكسّر السّيوف وبطلان مفعولها ، أن يعانقوا خصومهم ويهارشوهم ، عناق الأسود بعضها لبعض وهراشها . إنّ مثل هذه المرحلة ، لا يحب أن يراها المنافق فى المنام ، فضلا عن أن تمرّ بخياله السّقيم فى أحلام اليقظة . وعموما فإنّ المنافقين لو قدر لهم أن يشهدوا المعركة مع المؤمنين الصّادقين ، فإنّهم يلجأون دائماً إلى الآلات الّتى تبتعد بهم دائماً عن الخصم ، أو يلجأون هم أنفسهم إلى الابتعاد عنه ، بعكس المؤمنين تماماً . إنّ المنافقين لو فُرض أنّهُمْ استعملوا الرّماح الّتى تحتاج بُعْداً بينا من الخصم ، فإنّهم أحرص الخلق على استعمال أداة السّلاح الأخرى الّتى تضمن البعد الأوسع ، ألا وهى النبال . وربما آثروا استعمال الوسيلة الّتى يتحكم المستعمل لها فى إنساد مفعولها الّذى هو فى حكم الفاسد أساساً كالحجارة .

أمّا المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ، الصادقون فى الجهاد ، فكأنهم هم الّذين عنى كلّ واحد منهم ، زهير بن أبى سُلْمى أحد شعراء المعلّقات قبل الإسلام حينما يقول عن ممدوحه هرم بن سنان[1] .

يطعنهم ما أرتموا حتى إذا اطّعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

إنّ هذا المجاهد البطل الحريص على النّصْر أو الشّهادة يقترب باستمرار من خصمه ، وفى ذلك احتمال حتف كلّ من الخصمين ، مستعملا وسيلة القتال الأكثر ضمان فتك بخصمه مرغما خصمه على أن يحذو حذوه . إنّ الشّاعر كأنّه يتحدّث عن المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . إنّ الكافرين حينما يرمون بالنبال وهى تقتضى بعداً من الخصم ، فإنّ المؤمنين يستعملون الرّماح الّتى ترغم الكافرين على استعمال الرّماح ، وبالتّالى ضرورة الاقتراب من المؤمنين . وهنا يستعمل المؤمنون السّيوف الّتى يضاربون بها مقتربين كثيراً من الخصم . فيضطرّ الكافرون لاستعمال السّيوف . وهنا يتحوّل المؤمنون إلى عناق هؤلاء الخصوم ، وبذلك يبطل مفعول سيف الخصم ، فيضطرّ للعناق الّذى سبق إليه المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى . وكأن كلّ واحد من هؤلاء المؤمنين المتقين ، خالد بن الوليد سيف الله

---

(١) مختار الشعر الجاهلى ١/٢٥٠ .

المسلول ، الّذى تكسّرت بيده وحده فى موقعة مؤته[1] تسعة سيوف حتى تحقق نصر الله تعالى الّذى وعد به فى مثل قوله[2] : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ قال عزّ من قائل : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنّهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا** ﴾ .

---

(١) انظر الإصابة « خالد بن الوليد » ٤١٤/١ .

(٢) سورة محمّد ٧ .

(٦)

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾.

الآية ٢١

قال تعالى : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾** هذه الآية الكريمة ، تشكل جانباً مهما من جوانب الدّين الإسلامى ، الدّين الذى أكمله الله تعالى ورضيه لنا ، وأتمّ به النّعمة علينا ، لأنّها تبين فى وضوح تامّ ، بأن المصطفى ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ، ونعمته المسداة ، هو الأُسْوَةُ الحسنة ، والقدوة المثلى لنا نحن المسلمين ، فى كلّ ما يأمر به وينهى عنه ، فى كلّ ما يأتى ويدع . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من مثل قوله تعالى[١] : **﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب ﴾** وقوله تعالى[٢] : **﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للنّاس ما نُزل إليهم ولعلّهم يتفكرون ﴾** وقوله تعالى[٣] : **﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكلّ شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾**. ويأخذ منها بسبب مثل قوله ﷺ[٤] : ألا وإنّى أوتيت القرآن ومثله معه ، يعنى السنة . وقول عائشة رضى الله تعالى عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن[٥] لقد قال تعالى فى خلق رسوله الكريم[٦] « **وإنك لعلى خلق عظيم** » .

---

(١) سورة الحشر ٧ .

(٢) سورة النحل ٤٤ .

(٣) سورة النحل ٨٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/١ وانظر كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٤٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٠٢/٤ .

(٦) سورة القلم ٤ .

والحقيقة أنّ الحديث عن آية سورة الأحزاب الكريمة ذو جوانب متعدّدة ، ونحسب أنّ من أحسن الوسائل أن نتحدّث عن الآية الكريمة وفق ترتيب المعانى الّتى تعرض لها ما أمكن ، وربّما كان مفيدا أن نقف ابتداءً عند بعض الألفاظ وبخاصة لفظة « أسوة » وجملة « يرجو » فإن لهما بالذّات قدرة واضحة ، بعون الله تعالى على تبيين معنى الآية الكريمة .

إننا بشأن القول « لقد » أمام اللام الّتى تفيد التوكيد . والحرف « قد » الّذى يفيد التحقيق . وذلك معناه أنّا بصدد طريقة فى التعبير غير بسيطة ولا عادية ، دليلا على أهمية الهدف الرّئيسى الّذى تسعى الآية الكريمة إلى تحقيقه . وهو كون المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة . ثمّ إنّ الفعل النّاقص هنا « كان » ينسحب على كلّ زمان . ولا نملك إزاءه إلاّ أن نستحضر الفعل المماثل الّذى يأخذ منه بسبب فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ وقوله[2] : ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ وقوله[3] : ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ فجملة كان فى آية سورة الأحزاب « لقد كان لكم » رغم ارتباطها بالماضى أساسا ، هى تغطى كل الأزمنة ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

وفيما يتصل بلفظ « أسوة » يلاحظ أن ثمة نوعا من التشابه المعنوى بين اللفظين اللذين يشتركان فى حروف المادة الأصلية ، وهما الأسا ، وهو مفتوح مقصور ، بمعنى المداواة والعلاج ، وبمعنى الحزن أيضاً . وبين الأسوة والإسوة بالضمّ والكسر لغتان ، بمعنى القدوة ، وبمعنى التعزية أيضاً . ولعلنا لاحظنا بشأن الأسا ، علاقة اللفظ الوثيقة بالناحية المادية ، كما لاحظنا بشأن الأسوة علاقة اللفظ الوثيقة بالناحية المعنوية . هذا بالإضافة إلى علاقة كلّ من اللفظين بالعلاج على نحو من الأنحاء . بشأن الأسا العلاج المادّى . وبشأن الأسوة العلاج المعنوى . جاء فى لسان العرب[4] : « الأسا مفتوح مقصور ، المداواة والعلاج . وهو الحزن أيضاً . وأسا الجُرْح أسوا وأسا داواه .. وقد أسوْتُ الجرح آسوه أسْوا أى داويته . فهو مأسوّ

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠ .
(٢) سورة الإسراء ٦٧ .
(٣) سورة الإسراء ١٠٠ .
(٤) « أسا » .

وأسيى أيضاً على فعيل . ويقال : هذا الأمْر لا يؤسى كلمه .. والأسوة والإسوة : القدوة . ويقال : ائتس به ، أى اقتد به وكن مثله . الليث : فلان يأتسى بفلان ، أى يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به ، وكان فى مثل حاله . والقوم أسوة فى هذا الأمر ، أى حالهم فيه واحدة . والتّأسى فى الأمور : الأسوة ، وكذلك المواساة . والتأسية التعزية .. وتأسى به أى تعزى به .. ويقال : **أسوْتُ فلانا بفلان إذا جعلته أسوته** ، ومنه قوله عمر رضى الله عنه لأبى موسى : آس بين النّاس فى وجهك ومجلسك وعدلك . أى سوّ بينهم واجعل كلّ واحد منهم إسوة خصمة .. ولى فى فلان أسوة وإسوة أى قدوة .. وهو أسوتك أى أنت مثله وهو مثلك .. الجوهرى .. والأسوة والإسوة بالضمّ والكسر لغتان ، وهو ما يأتسى به الحزين أى يتعزّى به ، وجمعها أسا وإسا » ويقول الطبرى فى تفسيره[1] : « اختلفت القراء فى قراءة قوله : أسوة . فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار إسوة بكسر الألف خلا عاصم بن أبى النجود . فإنّه قرأه بالضمّ أسوة .. وذكر أن الكسر فى أهل الحجاز والضمّ فى قيس يقولون : أسوة وأخوة » .

وما معنى جملة يرجو فى قوله تعالى :﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ ؟ من العلماء منَ ذهب إلى أنّ الرّجاء فى الآية الكريمة بمعنى الأمل أو الخوف[2] ومن العلماء من قيد مثل هذا الإطلاق وقال : إنّ الرّجاء فى الاستعمال العادىّ كثيراً ما يجىء بمعنى الأمل نقيض اليأس . وقد يكون بمعنى الخوف[3] أمّا فيما يتصل بالرّجاء فى القرآن الكريم فللعلماء بشأنه رأى يحتاج إلى بعض توضيح . وملخص رأيهم أنّ الرّجاء يأتى فى القرآن الكريم بمعنى الأمل ، حينما يكون الكلام مثبتا . وهذه النظرة امتداد للنظرة اللّغوية الأولى . ويأتى بمعنى الخوف حينما يكون الكلام منفيا . جاء فى هذا الشأن فى لسان العرب[4] : وقال ثعلب : قال الفراء : الرّجاء فى معنى الخوف لا يكون إلاّ مع الجحد . تقول : ما رجوتك أى ماخفتك . ولا تقول : رجوتك فى معنى خفتك . . قال الفرّاء : وقال بعض

---

(١) ٩١/٢١ .

(٢) الكشّاف ٥٣٤/٢ والبحر المحيط ٢٢٢/٧ .

(٣) انظر هنا لسان العرب « رجا » .

(٤) « رجا » والزّيادة بين المعقوفين [ ] من المادة نفسها من كلام الفرّاء كذلك .

المفسرين فى قوله تعالى : وترجون من الله مالا يرجون ، معناه تخافون . قال : ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء إلاّ ومعه جحد . فإذا كان كذلك ، كان الخوف على جهة الرّجاء والخوف ، وكان الرّجاء كذلك ، كقوله عزّ وجلّ[1] : لا يرجون أيّام الله . هذه للذين لا يخافون أيّام الله . وكذلك قوله تعالى : لا ترجون لله وقارا [المعنى لا تخافون لله عظمة] قال : ولا يجوز رجوتك وأنت تريد خفتك . ولاخفتك وأنت تريد رجوتك . وقوله تعالى : وقال الّذين لا يرجون لقاءنا ، أى لا يخشون لقاءنا . قال ابن برى : كذا ذكره أبو عبيدة ،

وفى ضوء هذا الرّأى يمكن أن يكون معنى الجزئية الكريمة : ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ لمن كان يرجو ثواب الله تعالى ويأمل ما أعدّ للمتقين يوم القيام ، فى الجنة الّتى عرضها السّماوات الأرض ، ويتخذ ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً وسيلته ابتغاء مرضاة الله تعالى وجنته .

وكى نتبين العلاقة الوثيقة بين قسمى الآية الكريمة فى الإمكان أن نشير إلى العلاقة الوثيقة بين الجارّ والمجرور « لكم » من القول فى القسم الأوّل « لقد كان لكم » وبين البدل فى القسم الثّانى الّذى يبين طبيعة أولئك المخاطبين قال تعالى : ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ يقول الزّمخشرى[2] : « لمن كان يرجو الله بدل من لكم كقوله : للّذين استضعفوا لمن آمن منهم »[3] .

والآن نحن نتساءل : من هم المخاطبون فى الآية الكريمة ؟

لعلّ المتبادر إلى الذهن أنّ المخاطبين فى المقام الأوّل هم المؤمنون ، وهذا صحيح لأنّ الخطاب ابتداءً بالآية الكريمة الرّابعة فى السّورة الكريمة ، يتوجّه إلى هؤلاء المؤمنين المتقين الّذين جاءت الإشارة إليهم بصريح اللّفظ فى الآية الكريمة السّادسة فى قوله تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ ولأنّ الآية الكريمة بعد أن توجّه الخطاب فى صدرها مستعملة جماعة المخاطبين ، تفصّل فى عجزها ماأجملت حينما

---

(١) سورة الجاثية ١٤ .

(٢) الكشّاف ٢/٥٣٤ .

(٣) يريد الزّمخشرى الآية الخامسة والسّبعين من سورة الأعراف : ﴿ قال الملأ الّذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ .

تنتقى من أولئك المخاطبين الفريق الّذى يرجو الله تعالى واليوم الآخر وذكر الله تعالى كثيراً . ولا شك أنّ هذه هى أهمّ صفات المؤمنين المتقين . يقول أبو حيّان[1] : « الظاهر أنّ الخطاب فى قوله : لقد كان لكم للمؤمنين ، لقوله قبل : ولو كانوا فيكم . وقوله بعد : لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» والحقيقة بعد هذا أن الآية الكريمة تخاطب الأمّة المحمّدية جمعاء ، بأنّ أمامها النموذج البشرى الكامل ، الّذى تقيس إلى أقواله وأفعاله وأحواله ، كلّ ما يصدر عنها من قول أو فعل . فمن كان قوله وفعله موافقا لأقوال النموذج الكامل وأفعاله وأحواله ، فهذا هو السعيد حقا . ويكون حظه من درجات السّعادة ، وفق درجة المحاكاة الّتى وفق الله تعالى هذا الشخص أو ذاك للوصول إليها ، بناءً على نيته واجتهاده فى محاكاة المصطفى ﷺ ، رحمة الله تعالى المهداة ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين** ﴾ ووفق رحمة الله تعالى التى يقسمها عزّ وجلّ لذلك الشخص ، بناءً على نيته وعمله . وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ **ورحمتى وسعت كلّ شىء فسأكتبها للّذين يتقون ويؤتون الزّكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ .

وبناءً على ذلك فالمصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة التى ينبغى لكلّ مسلم لله ربّ العالمين أن يتخذها مثله الأعلى ، والمقياس الّذى يقيس به ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . فما كان موافقا أو كالموافق لأقواله ﷺ وأفعاله ، كان منتهى الطّلب وغاية المنى . وبقدر الموافقة أو عدمها ، بقدر الاقتراب أو الابتعاد من ذلك المثل الأعلى يكون التّوفيق بفضل الله تعالى الّذى قد يكون كاملا أو الفشل الّذى قد يكون ذريعا . وبهذا يتبين أنّ الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم ﴾ إنّما هو خطاب لكلّ المسلمين الّذين يشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله . وليس الخطاب مقصوراً على فئة معينة دون أخرى ، على الرّغم من أن جوهر الخطاب هم المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم . وإنّما كان الخطاب شاملا لكلّ المسلمين ، لأن المثل الأعلى من أوّليّات فوائده أنه تقاس به فى مثل هذه الأحوال سائر الأقوال والأفعال،وعن طريق هذا القياس يتبين مدى المطابقة والموافقة

---

(١) البحر المحيط ٢٢٢/٧ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف ١٥٦ .

لما صدر من المثل الأعلى من قول أو فعل . ومِنْ ثمّ على هذا السعيد أن يدعو الله تعالى من أعماقه أن يثبته على الصّراط المستقيم الّذى وفقه جلّ وعلا للسّير فيه . كما يتبين مدى المخالفة أو المنافرة لما صدر عن هذا المثل الأعلى من قول أو فعل . ومن ثمّ على هذا الشقى أن يستعين بالله تعالى ويتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، لأنّ حظه من الاقتراب من المثل الأعلى يكاد يكون معدوما فعليه أن يصحح من خطئه ، وأن يعمل جهد الطّاقة من أجل الاقتراب فالدّنو وفق طاقته وتوفيق الله تعالى له من ذلك المثل الأعلى .

وبهذا يتبين أن شخصية الرّسول الكريم ، ﷺ ، الأسوة الحسنة ، هى المقياس الّذى تقاس به شخصيات الأمّة الإسلامية وتوزن .ومعروف أنّ الميزان يعرف به وافى الموزون من ناقصه . ومِنْ هناصَحَّ بل لزم أن يكون الخطاب فى هذه الجزئية الكريمة : « لقد كان لكم » شاملا لكل أفراد الأمّة الإسلامية بفئاتها الثلاث ، الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات بإذن الله تعالى ، على نحو ما أشار إلى ذلك قوله تعالى[1] : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ مع تأكيد ما سبق أن قلنا من أنّ الّذين هم أهلٌ لأن يقال عنهم إنهّم المتأسّون ، أولئك الّذين استلّتهم الآية الكريمة فى عجزها من بين الفئات المتعدّدة ، المختلفة الصّفات ، ونعتتهم بأنهم يرجون الله واليوم الآخر وذكروا الله كثيرا .

وربمّا كان من أوضح الأدلة على أن الآية الكريمة مظهرا من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كل شىء أنها تجىء فى السّورة الكريمة أثناء الحديث عن غزوة من أشق الغزوات على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، الّذين يرجون الله تعالى واليوم الآخر ويذكرون الله كثيرا ، وإثر الحديث مباشرة عن المنافقين من زاوية أسوأ الأعمال الّتى صدرت عنهم بتلك الغزوة فى حقّ الله تعالى وحقّ رسوله ﷺ وحقّ المؤمنين . وإنّ من ألطف ما يمكن أن يقال فى هذا الصّدد ، مِمَّا هو دليلٌ أكيد على رحمة الله تعالى ولطفه بعباده ، أن المنافقين الّذين فرّوا من ميدان المعركة أثناء غزوة الأحزاب ، وتركوا المصطفى ﷺ والمؤمنين فى جبهة القتال يواجهون

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

وحيدين ماقدّره الله تعالى لهم ، قد لوّحت لهم الآية الكريمة السّابعة عشرة فى السّورة ، برحمة الله تعالى الّتى يمكن أن تنالهم وقتا من الأوقات بشروطها الّتى يمكن أن نقتبسها من آيات الذّكر الحكيم بأنّها التّوبة والإيمان والعمل الصّالح . قال عزّ من قائل : ﴿ **قل من ذا الّذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيرا** ﴾ كما جاء فى الآية الكريمة الرّابعة والعشرين ، ممّا هو دليل أكيد على كون باب التّوبة مفتوحا لكل عباد الله تعالى ، قوله عزّ من قائل : ﴿ **ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إنّ الله كان غفورا رحيما** ﴾ .

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نقول : إن المصطفى ﷺ إذا كان أساساً هو الأسوة الحسنة لعباد الله تعالى الّذين يرجون الله تعالى واليوم الآخر ويذكرون الله جلّ وعلا كثيرا ، فإنّه ﷺ وراء ذلك هو الأسوة الحسنة لكلّ من شهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله . فواجب هؤلاء المنافقين ، الّذين يطمعهم جلّ وعلا فى رحمته ، أن يقدروا هذه النعمة حقّ قدرها . وأن يشهدوا من أعماق قلوبهم ونفوسهم ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله ، وأن يترجموا إلى عمل ما ينطقون به من شهادة الإسلام ، لا أن يكون القول فى واد والعمل فى واد مخالف . فبذلك يصحّ فى حقهم قوله تعالى[1] : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ خاصة وقد لاحظنا أنّ هؤلاء الّذين استأذنوا النبى ﷺ فى الانسحاب متعللين وهم كاذبون بأن بيوتهم عورة ، ليسوا أسوأ المنافقين أعمالا . فعلى كلّ أن يأخذ حذره بأن يعود فورا إلى الله تعالى ، يتوب إليه ويستغفره ويعمل جاهدا بكلّ ما أوتى من طاقة ، من أجل اتخاذ المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة ، وذلك بأن يرجو الله تعالى واليوم الآخر ويذكره جلّ وعلا ذكراً كثيراً .

وإذا كان المنافقون الّذين هم إخوان الكافرين ، من أهل الكتاب وسواهم ، والّذين جمع الله تعالى بينهم وبين الكافرين فى النّار كما قال تعالى[2] : ﴿ **إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً** ﴾ قد فتح الله تعالى لهم باب رحمته الّتى وسعت

---

(١) سورة النساء ١٤٥ .

(٢) سورة النساء ١٤٠ .

كل شيء رغم أنّهم فى الدّرك الأسفل من النّار ، فمعنى هذا أنّ إخوان المنافقين من الكافرين[1] بعد أن يتركوا الضّلال الّذى هم سادرون فيه ، ويتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين ، يشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، ويطيعون الله تعالى ورسوله فى كل ما أمرا به ، ويزدجرون عن كلّ ما نهيا عنه ، يصحّ أن يكونوا بفضل الله تعالى من الّذين يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله تعالى كثيراً . وبذلك يكون لهم المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة .

والحقيقة أنّا محتاجون لأن نقرّر بوضوح تامّ ، بأنّ المصطفى ﷺ ، محمّد بن عبد الله النبى العربى القرشى الهاشمى ، هو الشخصية الوحيدة فى الدّنيا الّتى يصحّ أن تُتّخذ المثال الأعلى الّذى يحتذى . نقول هذا ونؤكّده ، لأنّ سيرة محمّد بن عبد الله ﷺ هى السّيرة الوحيدة فى الدّنيا ، الكاملة العلمية ، العملية التاريخية . ولا توجد فى الدّنيا سيرة واحدة تقترب من سيرة المصطفى ﷺ فى تحقق هذه الشروط ، بما فى ذلك سيرة أشهر رسولين كريمين بعد محمد بن عبد الله ﷺ وهما موسى وعيسى ابن مريم عليهما الصّلاة والسّلام[2] .

إنّ منتهى ما يعرف عن موسى عليه السّلام هو ماله علاقة ببعض جوانب حياته الحركية وبخاصة فى مجال القتال ، وبعض جوانب حياته الروحية.وإنّ شيئاً كهذا يقال عن عيسى عليه السّلام الّذى يعرف عن جوانب حياته الرّوحية بأكثر مهما يعرف عن جوانبه الأخرى . ثمّ إنّه عليه الصّلاة والسّلام قد عمق فى الحياة الجانب الرّوحى منها . فقد كان عليه الصّلاة والسّلام متخصصا فى الرّوحانيات ، ومعروف أنّ الحياة روح ومادّة . فمن رغب فى أن يجعله ﷺ أسوته فى جانب حياته الروحية أمكن له ذلك ، ولكن كيف العمل مع من أراد أن يجعله أسوته فى جانب حياته المادية . إنّه يكفينا أن نذكر ما صرّح به بعض الدّارسين الغربيين المعاصرين بأنّ من أراد أن يكتب كتابا فى سيرة عيسى عليه السّلام عليه أن ييأس ففى اليأس راحة ، لأنّ ذلك

---

(١) انظر ما ذكره ابن القيم فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ٤١١ بشأن فتح الله تعالى باب التوبة للكافرين الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات على نحو ما صرحت سورة البروج . يقول : « وقال بعض السلف : انظروا إلى كرمه كيف عذّبوا أولياءه وحرقوهم بالنار ثم هو يدعوهم إلى التوبة » .

(٢) انظر هنا نظرية الإسلام وهديه لأبى الأعلى المودودى ص ٩٨ فما بعدها ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٦٧ فما بعدها فصل : ترقّى الأديان بترق الإنسان وإكمالها بالإسلام .

مستحيل تماماً[1] .

وكم نسبة أولئك المسيحيين الذين حاولوا محاكاته عليه الصّلاة والسّلام فى جانب الرّوحانيات المتخصص فيه ، بالقياس إلى عدد المسيحيين فى الدّنيا ؟ لقد ثبت أنّ الأقلّ من القليل هم الّذين استطاعوا محاكاته ﷺ هذا إلى أنّ العدد يأخذ بمرور الأيّام فى التقلص[2] .

وربما ذكرنا هنا ما أشارت إليه دائرة المعارف البريطانية فى طبعتها الرابعة عشرة بأنّ الذائع حتى وقت قريب أنّ المعلومات الّتى وصلتنا عن عيسى عليه السّلام تتعلق بالسنوات الثلاث الأخيرة من حياته ﷺ الّتى استمرّت ثلاثا وثلاثين سنة . ولكن الدّراسات الجادّة الأخيرة أثبتت أنّ كلّ ما يُعْرف عنه ﷺ يتعلق بالخمسين يوما الأخيرة فقط من حياته عليه الصّلاة والسّلام . وإذا كان هذا هو منتهى ما يمكن أن يقال عن عيسى عليه السّلام أشهر شخصيات الأنبياء بعد محمّد ﷺ ، فيكف بالأنبياء الأخرين الّذين يقلّون أتباعا وشهرة ؟ إنّ العجز عن اتخاذ أحدهم أسوة حسنة أثبت وألصق .

لنتحوّل إذن إلى سيرة المصطفى ﷺ ، محمّد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الأسوة الحسنة . وهنا نبادر إلى القول بأنّ هذه الآية الكريمة ذاتها : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ تعتبر مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، كلام ربّ العالمين الأخير إلى البشرية ، الّذى نزل فى أسمى طرق الوحى على رسول من البشر كريم ، بواسطة ملك من الملائكة كريم . أمّا هذا المظهر من المظاهر الإعجاز فيمكن أن نتبينه حينما يتضح أنّ العناية الإلهية الّتى شاءت لهذا الرّسول الكريم أن يكون الأسوة الحسنة ، قد شاءت لشخصيته هذه الأسوة الحسنة ، أن تكون من الوضوح الّذى عرفنا ، لدرجة أنّا نعرف كلّ صغيرة وكبيرة تتعلق بحياة هذا الرّسول الكريم . ويكفى أن يقال بهذا الصدد : إنّ بين أيدينا مالا يقلّ عن مائة ألف حديث ، ميز العلماء صحيحها من زائفها بطريقة لم تعرف

---

(١) انظر هنا دائرة المعارف البريطانية مادّة عيسى مجلّد ١٠ ص ١٤٥ طبعة ١٩٧٥ م (الطبعة الإنجليزية) .

(٢) انظر هنا رسالة التوحيد ص ١٦٩ .

الإنسانية قريبا لها فى عظمة منهجها[1] وهذه المائة الألف حديث تتضمن أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته . ويبلغ العجب منتهاه حينما نتبين أنّ هذه الأحاديث تتحدّث عن كلّ ماله علاقة به ﷺ ، حتى فى أخصّ خصوصياته ، كعلاقاته ﷺ بزوجاته رضوان الله تعالى عليهن أجمعين . لقد جرت العادة بأن يكون للواحد منّا شخصيتان مزدوجتان . إحداهما تتجلى فى البيئة الخاصة ، والأخرى فى البيئة العامّة . وإنّ العادة جرت بأن الإنسان لا يسمح للنّاس أو لايريد للنّاس أن يعرفوا عنه إلاّ ماله علاقة بالشخصية الخارجية وبالبيئة العامة . وهذه الشخصية تكون غالبا مزوقة وتختلف عن الشخصية الداخلية اختلافا يصل أحياناً إلى درجة التناقض .

وإنّ لرسل لله تعالى شخصيّة واحدة . سمها إن شئت شخصية داخلية ، وإن شئت شخصية خارجية ، لأن الظّاهر كالباطن . فهذا المصطفى ﷺ ، يأذن بل يأمر بأن يبلّغ عنه كلّ ما يصدر عنه من قول أو فعل . وفى مقدمة الّذين أذن لهن المصطفى بذلك بل أمرهن ، أكثر خلق الله تعالى معرفة بأسراره ﷺ إنهن زوجاته الطيبات الطّاهرات.وبزوجاته ﷺ « قام نحو ثلث الدّين ، ممّا يتعلق بحياته المنزلية والعشرة وكثير من الأحكام ، تعلمها المسلمون منهن وحفظوه ونشروه »[2] وهل سمعت عن الصحيفة الصّادقة الّتى كتبها الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص بين يدى المصطفى ﷺ ؟ لقد نصح بعض الصحابه عبد الله بن عمرو بأن يكتب بعض ما يسمعه منه ﷺ لاكلّه لأنه عليه الصّلاة والسّلام يقول ساعة الرضا ويقول ساعة الغضب.وعلم المصطفى ﷺ بذلك القول فأمر عبد الله بن عمرو ابن العاص بأن يكتّب كلّ ما يسمع منه ﷺ لأن لسانه لا يقول إلا حقاً ويمتثل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما لأمره ﷺ فيكتب كلّ ما يصدر عنه ﷺ وما يسيل بين شفتيه من حقّ[3] وقد قال عزّ من قائل : ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾[4] .

هل سمعت عن الشخص الّذى بلغ حبّ أصحابه له وامتثالهم لأوامره واتخاذهم له

---

(١) انظر الرّسالة المحمّدية سليمان الندوى ص ٩٣ .
(٢) السّيرة النبوية للندوى ص ٣٥٢ .
(٣) الرّسلة المحمدية ص ٨٠ .
(٤) سورة النجم ٣ .

الأسوة الحسنة أن كانوا يستطعون أن يعدّوا الشّعرات البيضاوات فى لحيته ؟ إنّه محمد ابن عبد الله ﷺ . وهل سمعت عن الرّجل الّذى يسيل الدّم من جسده فى إحدى المعارك فيضنّ المحبّ الوامق الّذى يمتصّ ذلك الدّم عن الإلقاء به على الأرض فيزدرده ؟ إنّه محمّد بن عبد الله ﷺ . فهذا مالك بن سنان مص الدّم عن وجهه ﷺ فى معركة أحد ثم ازدرده[1] وإليك هذا الاقتباس الّذى يصوّر مدى حبّه ﷺ وحينما غشى النّاس رسول الله ﷺ فى معركة أحد قال عليه الصّلاة والسّلام : « من رجل يشرى لنا نفسه ؟ فقام زياد بن السّكن فى نفر خمسة من الأنصار . وبعض النّاس يقول : إنّما هو عمارة بن يزيد بن السّكن فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلا ثمّ رجلا يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عمارة . فقاتل حتى أثبتته الجراحة . ثمّ فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم[2] عنه فقال رسول الله ﷺ : ادنوه منى . فأدنوه منه فوسده قدمه . فمات وخدُّه على قدم رسول الله ﷺ »[3] وترسّ دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل . ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ[4] .

وقل ما شئت عن ضن أصحابه ﷺ بوَضُوئه[5] عن أن يصل إلى الأرض . فهذا عروة بن مسعود الثقفى وقد بعث به كفار قريش إلى رسول الله ﷺ فى أمر الحديبية آخر ست من الهجرة[6] : « وقد رأى ما يصنع به أصحابه . لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه . ولا يبصق بصاقا إلاّ ابتدروه . ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش : إنّى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه . وإنّى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمّد فى أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا . فَرَوْا رأيكم » . وفى حجة الوداع ، وبعد أن نحر ﷺ بيده الشريفة ثلاثا وستين بدنة ، بعدد سنى حياته ، وبعد أن أكمل علىّ رضى الله عنه نحر تمام المائة . استدعى ﷺ بالحلاق فحلق

---

(١) السيرة النبوية ٣/٢٨ (محمد محى الدين عبد الحميد) .
(٢) أزالوهم وغلبوهم .
(٣) السّيرة النبوية ٣/٢٩ (عبد الحميد) .
(٤) السّيرة النبوية ٣/٣٠ (عبد الحميد) .
(٥) الوضوء بالفتح : الماء الّذى يتوضأ به .
(٦) السّيرة النبوية ٣/٣٦٢ .

رأسه وقسم شعره بين من يليه[1] ويقول ابن حجر فى الإصابة[2] فى ترجمة سيف الله تعالى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه بعد أن نصر الله تعالى المؤمنين فى معركة اليرموك : « إنّ خالد بن الوليد فقد قلنسوته يوم اليرموك . فقال : اطلبوها فلم يجدها . فلم يزل حتى وجدوها فإذا هى خلق[3] فسئل عن ذلك فقال : اعتمر النبى ﷺ فحلق رأسه فابتدر النّاس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهى معى إلاّ تبين لى النصر » لقد كان فرحه رضى الله تعالى عنه لعثوره على القلنسوة البالية كبيراً لاشتمالها على شعرات له ﷺ .

وإنما عمدنا إلى لفت الانتباه إلى هذه الأمور البسيطة التى اهتم بها المسلمون لعلاقتها بالمصطفى ﷺ ، بقصد أخذ الدليل على الاهتمام العجيب من قبل هؤلاء الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بالأمور الأخرى الّتى تتقدم فى الأهمية .

وإذا نظرنا إلى سيرة المصطفى ﷺ وجدنا أنّها هى السّيرة الكاملة . كما تبين من الشّىء القليل الّذى ذكرنا لأنّها تغطّى كل حياته ﷺ . وهى السّيرة الوحيدة العلمية . فيكفى أن يقال فى هذا الصّدد : إنّ صحيح البخارى الّذى يشتمل بعد حذف المكرر من الأحاديث على زهاء أربعة آلاف حديث ، قد انتقاهاالبخارى رضى الله تعالى عنه من بين ستمائة ألف حديث .

روى عنه أنّه قال : خرّجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث فى ستّ عشرة سنة . وما وضعت فيه حديثا إلاّ اغتسلت وصلّيت ركعتين[4] وهى السّيرة الوحيدة العملية ، بمعنى أنّ صاحبها قد عاشها فعلا . فكلّ ما يقال إنمّا يستند إلى قاعدة صلدة من الواقع . وفى المقابل نحن عرفنا أن أشهر شخصية بعد محمد بن عبد الله ﷺ ، وهى شخصية عيسى عليه السّلام ، قد أثبتت الدّراسة الفاحصة أنّ كلّ ما يعرف عنه يتعلق بالخمسين يوماً الأخيرة من حياته ﷺ[5]

---

(١) سيرة خاتم النبيين ص ٣٢١ .

(٢) ٤١٤/١ .

(٣) الخلق ، بفتح الخاء واللاّم . يقال ثوب خلق وجبة خلق ، أى بال . يستوى فيه المذكر والمؤنث لأنّه فى الأصل مصدر . ولعلّ هذا هو الصحيح وليس « خلفه » كما جاء فى الإصابة .

(٤) من ترجمة البخارى بين يدى الصحيح .

(٥) النبى الخاتم ﷺ أبو الحسن الندوى ص ١٣ .

وفيما يتصل بخاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم نحن نعرف عنه كلّ صغيرة وكبيرة . وإن حياته ﷺ قبل البعثة واضحة وضوح الشمس فى كبد السّماء . وهى السّيرة الوحيدة التّاريخية . فكلّ وقائع التاريخ نؤيدها وتؤكدها . وربما كان مفيدا بهذا الصّدد أن نقول : إنّ زهاء عشرة آلاف صحابى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، إنمّا عنى التاريخ بهم واحتفى ، لأنّه لكلّ واحد منهم علاقة من نوع ما بالمصطفى ﷺ . وكما قلنا : إنّ كون شخصية المصطفى ﷺ بهذه الدّرجة من الوضوح الّذى لا تعرف الإنسانية خلال عصورها كلّها شبيها لها ولا قريبا من الشبيه . يعتبر إحدى معجزات القرآن الكريم ، كى تحقق الأسوة الحسنة لكلّ إنسان فى هذا الوجود سويّ الفطرة ، راجح العقل سليم الصّدر نقى القلب ، طيّب النفس .

ومن عجيب كمال هذه السّيرة العطرة ، أنّ كلّ إنسان فى هذا الوجود ، مهما كان ميدان عمله ، يستطيع أن يتخذ من هذا الرّسول الكريم الأسوة الحسنة . ومهما كان جهد هذا الإنسان أو طاقته ، فإنّه كلّه رضا وسعادة فى أن يوفقه الله تعالى ، كى يحاكى إلى مدّى ، شخصيّة الرّسول الكريم فى ذلك الجانب المعين من جوانب شخصيته ﷺ ، الّتى لا يكاد يأتى الحصر على جوانبها . إنّك على سبيل المثال ، لو كنت عاملا فى أى ميدان من الميادين ، فأنت تستطيع أن تتخذ منه ﷺ الأسوة الحسنة ، فى جدّك واجتهادك ومراقبة الله تعالى فيما ائتمنت عليه . فلعلك على خبر بأمين مكة قبل البعثة الّذى خصّه قومه بهذا اللقب العزيز « الأمين » لأنّه كان مضرب المثل فى الأمانة بشأن كلّ ما يأتيه فى حياته من أعمال . حتى إن السيدة الفاضلة خديجة بن خويلد رضى الله تعالى عنها ، عرضت على رسول الله ﷺ أن يخرج لها إلى الشّام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار فقبل الرّسول ﷺ العرض وخرج مع غلام لخديجة يدعى ميسرة حتى قدم الشّام[1] وقد تجلت نتائج أمانته ﷺ واجتهاده فى الربح الوفير الذى حققه ﷺ للسيدة خديجة ، ونقل إليها غلامها ميسرة رفيق الرّحلة كلّ أخباره ﷺ . وهنا بادرت رضى الله تعالى عنها بعرض نفسها عليه زوجا رءوما فى الوقت الّذى رفضت فيه العديد من رجالات قريش الّذين طلبوا يدها . « وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش

---

(١) السيرة النبوية ١/٢٠٣ (عبد الحميد) .

نسبا . وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالاً . كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه »[1] .

وفى إمكانك كذلك أن تتمثل المصطفى ﷺ والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يتأسّون به فى اجتهاده وإخلاصه أثناء العمل فى بناء المسجد النبوى ، وحفر الخندق ، وفى كلّ ما أتى ﷺ من أعمال . وإنّك لو كنت طالب علم ، ففى إمكانك أن تتمثل المصطفى ﷺ طالب العلم الحريص على ألاّ يفوته منه شىء ، وهو بين يدى جبريل عليه السّلام الّذى يلقنه الوحى والّذى يعرض عليه كلّ رمضان ما سبق نزوله عليه ﷺ من قرآن . ويقوم المصطفى ﷺ ، بين يدى جبريل عليه السلام ، كل سنة بالعمل نفسه . حتى إذا كانت السنة الأخيرة من حياته ﷺ ، تمّ فى رضمان عرض القرآن الكريم مرّتين اثنتين لا مرة واحدة كالمعتاد . وأنت تستطيع أن تتمثل مدى اهتمامه ﷺ بما يوحى إليه وحرصه على طلب العلم ، حينما تتبين أن ربّ العزّة يطمئن المصطفى ﷺ ، أوّل عهده بالوحى ، بأنّ الله تعالى ، سيثبت القرآن الكريم فى صدره ، وسيطلق به وبيانه لسانه . فعليه ألا يحرك به لسانه ليعجل به . جاء فى سورة القيامة[2] قول تعالى : ﴿ **لا تحرّك به لسانك لتعجل به . إنّ علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** ﴾ .

وأنت إن كنت معلما تستطيع أن تتّخذ منه ﷺ ، الّذى أوتى جوامع الكلم ، أسوتك الحسنة ، وتتمثله وهو يتلو على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فى المسجد وغير المسجد ، ما أوحى إليه من قرآن مجيد وسنة مطهرة ، وحينما يبين للمسلمين أمور دينهم ويتخولهم بالموعظة .

إن ميدان عملك واجتهادك ، مهما كان ، فإنك تستطيع أن تتخذ من هذا الرسول الكريم أسوتك الحسنة ، سواء كنت زوجا ، أو أباً أو جدا أو كبير أسرة أو رئيساً ، أو مرءوساً ، غنيا ، أو فقيراً أو قاضيا . سواء كنت عابدا ، مصليا أو مزكيا أو متصدقا أو صائما أو حاجّاً إلى بيت الله تعالى ومعتمرا ، أو كنت مجاهدا فى سبيل الله تعالى . منتصرا كما فى بدر وفتح مكّة منهزما - لا سمح الله - كأحد

---

(١) السّيرة النبوية ٢٠٥/١ (عبد الحميد) .

(٢) الآيات ١٦ - ١٩ .

وحنين . مبرم عقود وعهود ، بين أوليائك أو اندس بينهم خصوم ، إلى آخر ذلك . إنك تستطيع أن تكون من شئت وستتبين أن رسول الله ﷺ ، هو أسوتك الحسنة ، فى ذلك الفرع الضيق الّذى تخصصت فيه . وكلّك رضا وسعادة ، بل أمل ورجاء ، وأنت تبذل جهدك ، ومنتهى طاقتك ، أن يوفقك الله تعالى ، كى تتمكن فى حدود الممكن من محاكاة المصطفى ﷺ ، فى هذا الفرع الضيق من جوانب حياته ﷺ ، وستتبين بما لامجال فيه للمناقشة ، أنّ المصطفى ﷺ ، فى كلّ جانب من الجوانب المتعددة للشخصيّة ، الّذى تتخصص فيه طائفة من طوائف البشر ، يعتبر القمة التى تتفاوت طاقات البشر فى قطع بعض مسافات سفوحها .

لنأخذ على سبيل المثال . بشىء من التفصيل ، صفتين مختلفتين فى طبيعتهما . العبادة . والجهاد فى سبيل الله تعالى . ولتكن العبادة القمة الأولى . من هو المتخصص فى ميدان العبادة الّذى يستطيع أن يزعم أنّه يستطيع أن يجارى المصطفى ﷺ فى هذا الميدان الواحد من ميادين عظمته ﷺ المتعددة والّتى لا يأتى عليها الحصر . إن ربّ العزّة يخاطبه ﷺ فى مجال العبادة وفى مجالات أخر ، باعتباره غاية الغايات وقمة القمم ، فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ **يا أيها المزّمّل . قم اللّيل إلاّ قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا . إنّا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إنّ ناشئة اللّيل هى أشد وطئا وأقوم قيلا . إن لك فى النّهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربّك وتبتل إليه تبتيلا . ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا** ﴾ . وما موقفه ﷺ من أمر الله تعالى بأن يقوم الليل ؟ موقفه ﷺ أنّه سيّد العابدين . وهذه الآية الكريمة تبدأ به ﷺ فى هذا الميدان . قال تعالى[2] : ﴿ **إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثى اللّيل ونصفه وثلثه وطائفة من الّذين معك والله يقدّر اللّيل والنّهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسرّ من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون**

---

(١) سورة المزّمّل ١ - ١٠ .

(٢) سورة المزّمّل ٢٠ .

يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسّر منه وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾.

كان المصطفى ﷺ يصلّى حتى تتورم قدماه ، فكان يراوح بينهما ، بمعنى أنه يقوم على الواحدة كى تأخذ الأخرى قسطها من الرّاحة ، ثمّ يقوم على الأخرى كى تأخذ الأولى قسطها من الراحة كذلك . فأنزل الله تعالى عليه قوله[1] : **﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلاّ تذكرة لمن يخشى ﴾**[2] وإليك ، على سبيل المثال ، هذه الأحاديث التى تبين أسوته ﷺ للمسلمين فى الصّلاة التى هى عماد الدّين . عن أمّ الفضل بنت الحارث قالت : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفا ثمّ ما صلّى لنا بعدها حتّى قبضه الله[3] وكانت عائشة زوج النبى ﷺ تحدّث أنّ رسول الله ﷺ لمّا دخل بيتى واشتدّ به وجعه قال : هريقوا علىّ من سبْع قرب لم تحلل أو كيتهن لعلى أعهد إلى النّاس فأجلسناه فى مخضب[4] لحفصة زوج النبى ﷺ . ثمّ طفقنا نصبّ عليه من تلك القرب حتّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن . قالت : ثمّ خرج إلى النّاس فصلّى بهم وخطبهم[5] وثقل برسول الله ﷺ وجعه فقال : أصلّى النّاس ؟ قلنا : لا هم ينتظرونك يا رسول الله . فقال : ضعوا لى ماء فى المخضب ففعلوا . فاغتسل ثمّ ذهب لينوء فأغمى عليه . ثمّ أفاق فقال : أصلّى النّاس ؟ قالوا لا ، هم ينتظرونك يارسول الله . والنّاس عكوف فى المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى بكر بأن يصلّى بالنّاس . وكان أبو بكر رجلا رقيقا . فقال يا عمر : صلّ بالنّاس . فقال : أنت أحقّ بذلك منى . فصلى بهم تلك الأيام[6] وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن المسلمين بينما هم فى صلاة الفجر من يوم

---

(١) لباب النقول ص ١٤٦ .

(٢) سورة طه ١ - ٣ .

(٣) صحيح البخارى ١١/٦ .

(٤) المخضب : وعاء مثل المركن يغسل فيه الثياب .

(٥) صحيح البخارى ١٤/٦ .

(٦) السّيرة النبوية للندوى ٣٤٠ وانظر صحيح البخارى ١٤/٦ .

الاثنين – اليوم الّذى توفى فيه ﷺ – وأبو بكر يصلّى لهم ، لم يفجأهم إلاّ رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم فى صفوف الصّلاة ، ثمّ تبسم يضحك . فنكص أبو بكر على عقبية ليصل الصف . وظن أنّ رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصّلاة . فقال أنس : وهمّ المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتمّوا صلاتكم . ثم دخل الحجرة . وأرخى الستر[1] .

وهكذا يتبين حقّاً أنّ المصطفى ﷺ ، سيّد العابدين وإمام المتقين ، وأنّه الأسوة الحسنة للمسلمين فى كلّ ميدان من ميادين العبادة .

وإذا نحن تجاوزنا ميدان العبادة هذا . ومن سماته الخشوع والسكينة والخضوع ، لإيغاله فى الفردية ، وكونه عملا ذاتيا يتجه به المرء إلى المولى خالقه جلّ وعلا ، وتحولنا إلى ميدان آخر من ميادين العبادة ترتبط به آليا تحرّكات إيجابية فردية وجماعية ، ويتطلب الكثير من الجهد والمشقة والصّبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله تعالى ، كى يكون بإذن الله تعالى عملاً صالحاً مقبولاً ، استطعنا أن نتبين أنّ هذا الميدان أوضح ما يكون فى الجهاد فى سبيل الله تعالى بالنفس والمال . وأنت بتدبرك لسيرة المصطفى ﷺ فى هذا الجانب من حياته ﷺ وهو جانب يتطلب حركة دائبة واتصالات بالآخرين مستمرة ، سواءٌ كانوا موالين أو معادين ، تتبين أن المصطفى ﷺ هو إمام المجاهدين وهو بطل الأبطال . تماماً كما كان عليه الصّلاة والسّلام إمام المتقين وسيّد العابدين .

وحينما ننظر إلى عظماء الدّنيا فى هذا الميدان ، وليكن رمزا لهم القائد المسلم الفذ المظفر خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فاتح الشّام وأجزاء من فارس ، فمع أنّه المتخصص فى ميدان واحد هو الفروسية يكفيك أن تعلم أنّه أحد تلاميذ المصطفى ﷺ فى هذا الميدان ، الّذين لا يأتمرون إلاّ بأمره ولا ينتهون إلاّ بنهيه ، ومن الّذين أتاح لهم المصطفى ﷺ أن تتفجر عبقرياتهم العسكرية والسياسية ، فصارعوا الأمم ، بينما كانوا قبيل إسلامهم ، تذهب كل أعمالهم ، وإن كان ظاهرها البطولة ، هدرا ، كما صرح بذلك سيف الله خالد قبيل إعلانه إسلامه . وانظر ما قال خالد لجرّجة

---

(١) السيرة النبويّة للنّدوى ٣٤٠ وانظر صحيح البخارى ١٤/٦

الرّومى أثناء القتال فى معركة اليرموك[1] : « إن الله بعث فينا نبيه ﷺ فكنت فيمن كذبه وقاتله ثمّ إنّ الله هدانى فتابعته فقال : أنت سيف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر » وهل خطر ببال خالد بن الوليد وأضرابه من الشجعان قبل إسلامهم أن تمتد دائرة سلطانهم خارج حدود قبيلة قريش التى ينتمون إليها ؟ لم يخطر ببال واحد منهم شيء من هذا القبيل ، فكيف بالتفكير فى غزو فارس أو الرّوم.إن مثل هذه الأفكار فى يقينهم ضرب الجنون . وتشاء العناية الإلهية أن تخرج العرب بل الإنسانية كلّها من الدّائرة الضيقة التى تعيش فيها ، دائرة الأنانية ، إلى أكبر دائرة يمكن أن تعرفها الإنسانية ، حينما يتّسع صدرها لهذا الوجود ، ويتصل فى أعماقها الحياة الأخرى بالأولى ، وذلك باصطفائه جلّ وعلا محمّد بن عبد الله ﷺ خاتما للأنبياء والمرسلين ، ذلك الشخص الهادى الوادع السّاكن قبل الرّسالة سكون البركان المستعد أيّ لحظة للثوران ، بسبب ما فى باطنه من نيران ، وهدوء المحيط ، رغم ما يضطرب بداخله من خلق . لقد تفجر البركان بالرّسالة وهاج المحيط ، وتلاطم موجه ، وعلا عبابه ، وطفا زبده،وتقاذفت جبال الأمواج فلكه . فلم يقر له ﷺ قرار منذ أن أمر بتبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة ، ودعوة العالمين إلى الصراط المستقيم ابتداءً بعشيرته الأقربين . وأخذ ﷺ يدعو النّاس إلى ربّه بالحكمة والمواعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فما ازدادت قريش على جهة الخصوص إلاّ عنادا واستكبارا ، رغم مكثه ﷺ بين ظهرانيهم ثلاث عشرة سنة ، لم يعتنق الإسلام خلالها إلاّ زهاء ثلاثمائة شخص[2] وقد اضطر المسلمون أثناءها للفرار بدينهم إلى الحبشة مرتين، بسبب إيذاء قريش لهم . وأوذى ﷺ أذى بليغا طوال الفترة المكية حتى أذن الله تعالى للمسلمين ابتداءً بالهجرة إلى المدينة المنوّرة وأذن له ﷺ أخيرا بالهجرة . وطوال تلك الفترة التى كان المسلمون بمكّة يسامون فيها الخسف ، كان الرّسول ﷺ بأمر من ربّه جلّ وعلا ، ينهاهم عن مبادلة السيئة بمثلها ، ويكف

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤١٢/٢ .

(٢) نظرية الإسلام وهديه لأبى الأعلى المودودى ص ١٢٥ .

أيديهم عن القتال ، كما جاء فى سورة النّساء[1] فى قوله تعالى : ﴿ **كفوا أيديكم وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة** ﴾.

وكان المسلمون بقيادة المصطفى ﷺ كلّهم طاعة لأوامر الله تعالى بأن يكفوا أيديهم ويمتنعوا عن القتال . ثمّ شاءت العناية الإلهية بعد الهجرة ، أن يؤذن للمسلمين فى الدّفاع عن أنفسهم وذلك فى قوله تعالى من سورة الحجّ[2] : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الّذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله . ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الّذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ وهذا الإذن لرسول الله ﷺ بالدّفاع عن أنفسهم ، كان لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر صفر فى السنة الثانية من الهجرة . وهذا أوّل ما أنزل فى الإذن بالقتال ، بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية[3] ثمّ أذن الله تعالى للمسلمين فى أن يقاتلوا فى سبيله جلّ وعلا الّذين يقاتلونهم وألاّ يعتدوا . جاء فى سورة البقرة[4] قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين** ﴾ ثمّ كان الإذن بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة وقد جاء فى سورة التوبة[5] قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أنّ الله مع المتقين** ﴾ وقوله تعالى[6] : « **قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الّذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾.

وإنّ أوّل لواء عقد فى الإسلام كان فى شهر رمضان المبارك لحمزة بن

---

(١) الآية ٧٧ وانظر هنا لباب النقول فى أسباب النزل ص ٧٤ .

(٢) الآيات ٣٩ - ٤١ .

(٣) نور اليقين فى سيرة سيّد المرسلين ص ٢١٢ هامش ٧٦ .

(٤) الآية ١٩٠ .

(٥) الآية ٣٦ .

(٦) سورة التوبة ٢٩ .

عبد المطّلب على رأس سبعة أشهر من الهجرة

والّذى يتدبّر حياته ﷺ فى ميدان الجهاد فى سبيل الله تعالى ، يخيل إليه ، كما لو كان عليه الصّلاة والسّلام متخصصا فى هذا الميدان ، لأنّه يعتبر فيه قمة القمم ، ولأنّ عظماء العالم فى هذا الميدان يتساقطون على سفوح عظمته ﷺ ، فهو بحق بطل الأبطال ، وفارس الميدان ، والأسوة الحسنة لكلّ المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله تعالى . وقد قال ﷺ : الجهاد ماض إلى يوم القيامة .

وإذا نحن نظرنا إلى عدد غزواته ﷺ . تبينا أنّها كما يقول البخارى فى صحيحه[٢] تسع عشرة غزوة أمّا عدد السّرايا والبعوث فستون[٣] وتوفى ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير[٤] لأنّه ﷺ لم يترك بعد وفاته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة إلاّ بغلته البيضاء الّتى كان يركبها وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة[٥] والمعروف أنّه ﷺ هو النبى الوحيد الذى قدّر لدولته أن ترتبط بدعوته . وحينما هاجر ﷺ ، أمكن بفضل الله تعالى أن يؤسس هذه الدّولة الّتى كانت حدودها إبتداء بضعة أميال مربعة ، ولم يمض سوى تسع سنوات تقريبا حتى كانت حدود هذه الدّولة الإسلامية تزيد على المليون الواحد من الأميال المربعة . ولعلّه للمرّة الأولى فى التّاريخ ، تتوحّد الجزيرة العربية تحت راية المصطفى ﷺ . والمعروف أنّ توحيد الجزيرة العربية اقترن به اعتناق سكّانها لعقيدة التوحيد . فليست المسألة مسألة انسياح عسكرى.إنّما المسألة أعمق من ذلك بكثير ، إذ تحوّل سكّان الجزيرة العربية من مشركين إلى موحّدين لله ربّ العالمين . وخرج ﷺ إلى تبوك فى رجب سنة تسع من الهجرة فى ثلاثين ألفا . وكان أكبر جيش خرج به فى غزوة . وإذا عرفنا أنّ جيوش الأحزاب كانت زهاء عشرة آلاف ، وقد قليلا ، ويعتبر ذلك أعلى رقم

---

(١) الجهاد فى سبيل الله لسيد قطب ص ١١٦ وانظر زاد المعاد فى الفصل الّذى خص فيه الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام وعنوانه : فصل فى ترتيب هديه مع الكفّار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عزّ وجلّ .

(٢) ٢٠/٦ وانظر هنا السيرة النبوية ص ٣١٥ فلديه عدد الغزوات سبع وعشرون غزوة اعتمادا على ابن القيم فى الزاد .

(٣) السيرة النبوية للندوى ص ٣١٥ .

(٤) صحيح البخارى ١٩/٦ .

(٥) صحيح البخارى ١٨/٦ .

وصلت إليه قوة قبل الإسلام ، استطعنا أن نفهم معنى خروجه ﷺ إلى تبوك ، لكفح عدوان الرّوم ، الّذين سوّلت لهم أنفسهم مهاجمة المسلمين فى عقر دارهم . وحينما اتجه ﷺ انسحب الرّوم ولم يلق كيدا فعاد إلى المدينة المنوّرة بعد أن أدّت الحملة دورها . ومتى كان خروجه ﷺ يريد الرّوم ؟ بعد عامين اثنين فقط من انتصار هرقل الرّائع على الفرس .

ولم تسقط راية الجهاد فى سبيل الله تعالى بعد وفاته ﷺ ابتداءً بجيش أسامة الّذى أنفذه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، امتثالا لأمره ﷺ . وقد جيّش عليه الصّلاة والسّلام قبيل وفاته هذا الجيش ، وأمر أسامة بن زيد بن حارثة أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين . ولم تمض مائة وثمانية عشر عاما[1] على وفاته ﷺ حتى كانت حدود الدّولة الإسلامية ممتدة دون انقطاع من حدود الصّين شرقا إلى حدود فرنسا غربا . وكما قلنا بشأن توحيد الجزيرة العربية ، إن المهمّ ليس هو الانسياح العسكرى فقط . إنما المهمّ بل الأهم ، بالإضافة إلى ذلك عُمق الآثار الّتى أحدثها الإنقاذ الإسلامى عقديا وثقافيا ولغويا واجتماعيا .

ولعلك وقد راعك اتساع الدّولة الإسلامية خلال عشر سنوات ، كى تغطى مايزيد على المليون الميل المربع، تودّ أن تعرف عدد القتلى من الفريقين. وستعجب حتما حينما تتبين أنّ هذه المعجزة حصلت بأقل كمية من الدّماء وأقل عدد من الأرواح ، إذ إن عدد القتلى من الفريقين زهاء ألف وثمانية عشر قتيلا[2] .

قارن ذلك بقتلى الحربين العالميتين الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ م والثّانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ م فقد ذكر الكاتب المحقق فى دائرة المعارف البريطانية فى هذا الموضوع أنّ عدد المقتولين فى الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس ٦,٤٠٠,٠٠٠ وعدد المقتولين فى الحرب العالميّة الثّانية بين خمسة وثلاثين مليونا وستين مليون نفس بين ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ .

ولم تخدم هاتان الحربان كما يعلم الجميع، مصلحة إنسانية ولم يستفد منهما العالم البشرى فى قليل أو كثير .

---

(١) الإسلام قوة الغد العالميّة ص ٢٤ وانظر العربية يوهان فك ص ٧ .

(٢) انظر السّيرة النبوية للندوى ص ٣١٥ ونظرية الإسلام وهديه للمودودى ص ١٢٠ .

وقد بلغ عدد الضحايا محاكم التفتيش فى أوربا فى القرون الوسطى والاضطهاد الكنسى إلى اثنى عشر مليون نفس ١٢,٠٠٠,٠٠٠[١] .

لقد تعمدنا فى نظرتنا إلى النبى ﷺ رسول الله تعالى الأسوة الحسنة أن نتحدث عن صفتين ، ترتبط إحداهما ، وهى العبادة بالسّكون والخشوع . وترتبط ثانيتهما وهى صفة الجهاد فى سبيل الله تعالى بالحركة وقيادة الجموع . والثابت أنّه ﷺ تتساقط على سفوح عظمته منتهى العظمات والعبقريات فى كلّ الميادين والصّفات . على نحو ما تبين بشأن الصّفتين المتباعدتين فى الطبيعة والعنصر اللتين تحدّثنا عنهما . وكيف لا يكون ﷺ الشخص الكامل والنموذج الأمثل والأسوة الحسنة ، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، ونعته فى محكم كتابه بأنّه على خلق عظيم ، فهنيئا لمن وفقه الله تعالى كى يعمل جهد الطاقة . بقصد محاكاته ﷺ الأسوة الحسنة ، فى الجانب الّذى تخصص فيه . فقد أمر الله بذلك فى محكم كتابه فقال[٢] : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين** ﴾ وقال[٣] : ﴿ **وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ وقال[٤] : ﴿ **ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما** ﴾ وقال[٥] : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين** ﴾ وقال[٦] : ﴿ **وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للنّاس مانزل إليهم ولعلّهم يتفكرون** ﴾.

وربما كان مفيدا أن نسجل أهمّ مصادر سيرة المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة . إنّها أربعة مصادر رئيسية هى :

١- القرآن الكريم الّذى تكفل ربّ العزة بحفظه قال تعالى[٧] : ﴿ **إنا نحن نزلنا**

---

(١) السّيرة النبوية للندوى ٣١٧ .
(٢) سورة آل عمران ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة الحشر ٧ .
(٤) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .
(٥) سورة الأنبياء ١٠٧ .
(٦) سورة النحل ٤٤ .
(٧) سورة الحجر ٩ .

الذّكر وإناله لحافظون ﴿ وبما أنّ القرآن الكريم تضمن جزءا كبيراً من سيرته ﷺ ففى حفظ الله تعالى كتابه العزيز حفظ لسيرته ﷺ فتسنى اتخاذه عليه الصّلاة والسّلام أسوة حسنة .

٢ – سنة المصطفى ﷺ .

٣ – ما كتب العلماء من مصنفات فى حياته ﷺ وسيرته . ويكفى أن يقال فى هذا الصّدد ، دليلا على وفرة هذه المصنفات خلال العصور ، بأن ما ألف فى اللغة الأردية ، وهى لغة صغيرة السن حديثة الميلاد ، يزيد كثيراً وكثيراً على الألف مؤلف[1] .

٤– الشعر : والمعروف أنّه ﷺ كان له شعراؤه ، وفى مقدّمتهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ويبقى بعد ذلك سؤال هو : هل ثمّة صفة بعينها من صفات المصطفى ﷺ ، أرادت سورة الأحزاب منا نحن المسلمين أن نتخذها على جهة الخصوص أسوة حسنة لنا والعمود الفقرى لصفاتنا ؟

وفى سبيل الإجابة عن هذا السّؤال والوصول إلى هذه الصفة نحن بحاجة إلى معرفة أمرين اثنين أحدهما القسم من سورة الأحزاب الّذى جاءت فى أثنائه هذه الآية الكريمة الحادية والعشرون،وثانيهما الصّفة الّتى ركزّ عليها السّياق ، والّتى انفرد بها آنذاك المصطفى ﷺ ، وأمكن بفضل الله تعالى لبعض الرّجال من المؤمنين أن يحاكوه ﷺ فيها ويوفقوا فى هذه المحاكاة إلى درجة كبيرة .

أما القسم الذى جاءت فى ثناياه الآية الكريمة فإنّه معروف . إنّه القسم الّذى يتكوّن من تسع عشرة آية كريمة تتحدث عن غزوتى الأحزاب وبنى قريظة . وغزوة الأحزاب هذه معروف أنّها من أشق الغزوات على المؤمنين إن لم تكن أشقها ، على الرّغم من أن عدد القتلى بفضل الله تعالى محدود . وإنّما كانت الغزوة من أشق الغزوات لأنّ كلّ قوى الشرّ الخارجية والدّاخلية رمت المسلمين عن قوس واحدة . فقريش وأحابيشها وغطفان وحلفاؤها جمعوا فى السنة الخامسة من الهجرة بتحريض

---

(١) الرّسالة المحمدية ص ٩٦ .

يهود بنى النضير الّذين أجلاهم المصطفى ﷺ من المدينة ، جمعوا أكبر قوّة عسكرية أمكن حتى ذلك الوقت تحزبها على باطل . فقد كانوا يزيدون على العشرة الآلاف مقاتل . أمّا المنافقون فقد ظهروا على حقائقهم الّتى كانوا من قبل حريصين على إخفائها . وإذا كان أسوؤهم موقفا قد جاء على لسانهم القول : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا ﴾ فإنّ أقلّهم نفاقا لم يترددوا عن الفرار من جبهة القتال ، متعللين بأكذب الأعذار ، تاركين المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ يواجهون وحدهم ما قدر الله تعالى لهم . وأمّا يهود بنى قريظة – وسنتبين ذلك بالتفصيل إن شاء الله تعالى مستقبلا – فقد نقضوا العهد الّذى كان بينهم وبين المصطفى ﷺ . إنّ غدر يهود بنى قريظة لا يستغرب وقد نالوا جزاءهم الّذى أشار إليه قوله تعالى من سورة الأحزاب[1] : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ وأمّا المشركون فقد ردّهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا خيراً قال تعالى[2] : ﴿ **وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا** ﴾ وأمّا المنافقون فقد فضحهم الله تعالى وكشف نواياهم وأخزاهم . وبطبيعة الحال لا يستغرب ذلك الموقف من المنافقين . وقد تحدّثت الآيات من الثانية عشرة إلى العشرين عن هؤلاء المنافقين كما سبق أن تبينا .

أمّا المؤمنون ، فقد عرفنا أنّ أبصارهم قد زاغت ، وأن قلوبهم قد بلغت الحناجر ، وأنّ ظنونهم قد تفاوتت وذلك تبعا لتفاوت درجات الإيمان . أمّا أعلى المؤمنين إيمانا وأقواهم يقينا فهم أولئك الّذين تحدّثت عنهم الآيات الثلاث التالية مباشرة للآية الكريمة الحادية والعشرين الّتى تأمر المسلمين باتخاذ رسول الله أسوة حسنة . قال تعالى : ﴿ **ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إنّ الله كان غفورا**

---

(١) الآية ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الآية ٢٥ .

رحيما ﴾ .

وبهذا يتبين أنّ أهمّ صفة عنيت بها الآية الكريمة من صفاته ﷺ هى صبره عليه الصّلاة والسّلام ومصابرته ومرابطته وتقواه . لقد كان رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة للمؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . فعلى المسلمين أن يتحلوا بهذه الصفة من أجل استرداد المسجد الأقصى والقدس الشريف وسائر المقدسات الإسلامية ، ومن أجل الذود دائماً وأبدا عن بيضة الإسلام . قال تعالى[1] : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ وقال تعالى :﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ يقول ابن كثير بشأن الآية الكريمة[2] : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التّأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله . ولهذا أمر تبارك وتعالى النّاس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربّه عزّ وجل صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدّين . ولهذا قال تعالى للّذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائلة ﷺ . ولهذا قال تعالى : ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ ويقول القرطبى[3] : واختلف فى هذه الأسوة بالرّسول عليه السّلام . هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب على قولين . أحدهما على الإيجاب حتّى يقوم دليلٌ على الاستحباب . الثّانى على الاستحباب حتّى يقوم دليلٌ على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب فى أمور الدّين ، وعلى الاستحباب فى أمور الدّنيا . قال تعالى :﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾.

---

(١) سورة التوبة ١٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٤ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٣٨ .

(٧)

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾

الآيات ٢٢ ــ ٢٤

لقد عرفنا أنّ المطلوب من المسلمين لله ربّ العالمين أن يتخذوا رسول الله ﷺ أسوة حسنة لهم ، وبخاصة فى صفة الجهاد فى سبيل الله تعالى : « فلقد شج وجهه وكسرت رباعيته ، وقتل عمّه حمزة ، وجاع بطنه ، ولم يلف إلاّ صابرا محتسبا وشاكرا راضيا »[1] وبفضل الله تعالى ، قد آتى هذا الدّرس العظيم أكله . وها هى ذى الآية الكريمة التالية ، وكذلك الّتى تليها تنصان على توفيق الله تعالى للمؤمنين المتقين فى اتخاذهم المصطفى ﷺ أسوة حسنة لهم ، فى كلّ أمورهم ، وبخاصة فى ميدان المعركة . وها هى ذى أولى الآيتين الكريمتين،علما بأن الآية الكريمة الثالثة فى هذا القسم تنص على جزاء الله تعالى كلاًّ من المؤمنين والمنافقين ، قال تعالى : ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما**﴾ لقد عرفنا أنواع المواقف المخزية للمنافقين ، والّذين بلغت وقاحة بعضهم أسوأ الدرجات حيث سمحوا لألسنتهم بأن يجرى عليها ممّا تعتقده نفوسهم : ﴿**ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا**﴾ وفى المقابل نحن نجد المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى يجىء على لسانهم القول : ﴿**هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله**﴾ ومعروف أن المنافقين جميعا هربوا من ميدان المعركة ، وحسبوا أنّ الأحزاب لم يذهبوا . ولو عاد الأحزاب لتمنوا أنّهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنباء المؤمنين ، مكتفين باستخدام حاسة السمع الّتى تنقل إليهم المعلومات عن المؤمنين . لأن هؤلاء المنافقين أجبن من أن يروا إخوانهم أعداء

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٣٧ .